صفات الكفار وأنواع الكفر

اسامة عبد الرحمن

رقم الايداع: ٢٠١٩/١٤٧٨٥

الترقيم الدولى: ٩٧٨-٩٧٧-٧٢٧-٢٦٥-٩

مقدمة

اختفى تقريباً كل شئ جاد ، وضعف الوازع الدينى ،أو لنقل كاد التمسك بالدين يذهب بالكلية

ولأنه فرض على كل مسلم أن يعرف أمور دينه معرفة صحيحة فلربما أكون مصلياً مزكياً حاجاً ،ولكنى لست بمسلم أو مسلم مقصر ذهب به تقصيره و عدم فهمه إلى الخروج من الدين ، أو متشدداً ذهب به تشدده ذات المذهب فكلا طرفى القصد ذميم ، وربما أكون مسلماً ولكن يوجد نص فى القلب منه شئ من الشك ،ويكون هذا الشك إرتداداً عن الدين وأشياء كثيرة دفعتنى إلى محاولة معرفة حدود الإسلام ،وحدود الكفر فلما اشتدت بى الرغبة فى الحصول على معرفة قاطعة عن الحدود التى تفصل بين الكفر والإيمان أخذت معولى ،وشمرت عن ساعدى واجتهدت فى البحث فى هذا الموضوع فأسرتنى كتابات الشيخ الجليل أحمد بن تيمية ، وكلام الشيخ عز الدين بن عبد السلام وبعض تفسيرات الشيخ

الشعراوى ، والشيخ محمد الغزالى وكثيرين وقع كلامهم فى نفسى على ذات الموقع الذى كنت أهوى أن يقع عليه

وكان دافعى إلى الكتابة فى هذا الموضوع هو محاولة إشعال بصيص من النور يهدينى ويهدى معى من يحاول أن يسير على ذات الطريق ، فيعرف حدود الشر الذى إن زلت فيه قدم ولم تتب ،خلدت فى الجحيم ، وأيضاً لأنى وجدت معظم ما تزخر به المكتبة الإسلامية يتحدث عن الإيمان ،وسير المؤمنين ،والمعاملات ،والعبادات ،وعن التوحيد وعن فقه كذا ... وكذا ، فأردت أن أضيف موضوع عن الكفر إلى القليلين الذين كتبوا فيه لأضع به أمام أعين القراء الحدود التى تخرج بالمرء عن الدين ،فاحمى نفسى ،وأحميهم من خطر الوقوع فى الردة كما وجدت بحس المسلم أن هذا الموضوع هو من أكثر الموضوعات أهمية فى حياة المسلم خاصة فى ظل هذه الأوضاع المتردية ، والتى لم يعد للدين فيها أى دور فى حياة معظم الناس الذين يفترض أنهم مسلمون

اسامة عبد الرحمن

صفات الكفار

١- نقص العهد : [والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه]

من أبرز صفات الكفار نقض عهد الله ، ومن ينقض عهد الله فهو لا يحترم نفسه ، ومن لا يحترم نفسه لا يحترم الآخرين ، وأخيرا فهو يتحدى الله ويخالف أمره ، وعندما ينقض الانسان عهده فان ذلك لا يجعل حياته مرسومة ضمن خطة بعيدة المدى ، بل تكون أعماله مجرد ردود أفعال لا أكثر أو بمعنى آخر انعكاس لظروف متغيرة ، والعهد عهدان : عهد مع الله أخذه الله على الانسان في عالم الذر ، والعهد الثاني : عهد مع الآخرين أشهد الله عليه ، فنقض العهد مع الله كفر ، ونقض العهد مع الناس لؤم

٢ - قطع الرحم :[ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل]

يقطعون أرحامهم أو رحم أهل بيت الوحي

٣ - الفساد في الأرض :[ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة و لهم سوء الدار]بنشر الفساد ، وهناك معنى آخر نستوحيه : انهم يفسدون بيئة

الارض ، وهذه حالة الكفار فهم ينتقمون من الطبيعة ، وما الاسلحة الاستراتيجية والميكروبية الا دليل على نشر الدمار كما أن تلويث البيئة الطبيعية دليل نشر الفساد أولئك لهم اللعنة واللعنة الطرد والابعاد عن رحمة الله في الدنيا بالاضافة الى طردهم من رحمة الله في الدنيا ، اذ يعيشون القلق ، فلهم سوء الدار

ملاحظتان :

الملاحظة الاولى : ان الصفات الحسنة كما الصفات السيئة أخوات ، فالصفة الحسنة تجر وراءها صفات أخرى حسنة مثلها ، كما ورد في معنى الحديث : اذا رأيت من أخيك حسنة فانتظر مثيلاتها وهكذا الصفات السيئة

اما لماذا ذلك ؟ فلأن الصفة الحسنة مصدرها نفسية حسنة وهذه النفسية الحسنة تعطي بدورها صفات حسنة اخرى ، والعكس صحيح ، فلذلك فان الله يسوق الصفات الحسنة مع بعضها ، والصفات السيئة مع بعضها

الملاحظة الثانية : ان للانسان أربع علاقات :

١- علاقته مع ربه

٢- علاقته مع نفسه

٣- علاقته مع الناس

٤- علاقته مع الطبيعة

وعلاقة الكافر بهذه الاصناف مقطوعة أو هي علاقات سلبية ، فعلاقته مع ربه مقطوعة ، كما قال : والذين يقطعون ما أمر الله به ان يوصل وعلاقته مع نفسه مقطوعة اذ أنه لا يحترمها وعلاقته مع الناس كذلك كما قال سبحانه : والذين يقطعون ما أمر به الله ان يوصل وعلاقته مع الطبيعة سلبية كما قال : ويفسدون في الأرض

وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع :

[و الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقبض]ان الله يوسع الرزق على من يشاء من عباده برحمته ويضيق على من يشاء بحكمته

وقد يشاء الانسان الدنيا فيبسط الله الرزق له ، كما قال : ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين (١٤٥ / آل عمران) وقد يبسط الله الرزق للانسان بعد ابتلائه ليأخذه على حيـن غرة كما قال : ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء و الضراء لعلهم يتضرعون * فلو لا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون * فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذنـاهم بغتة فاذا هم مبلسون (٤٢ - ٤٤ / الانعام)اما نعم الله على الانسان فبالاضافة الى ما سبق ربما تكون عذابا كما جاء في الحديث :

ان العبد ليحرم الرزق لذنب أذنبه

وربما يكون إمتحانا وأخيرا اذا قتر عليك الرزق فلا تيأس من روح الله ، كما لا تعجب بما اتاك الله فقد يسلبه منك

وان من حكمة الله سبحانه أيضا انه يهيء الدنيا للكافر ليلهو عن الحق ، ويبتعد عن الرسالة ، فالدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر

[وفرحوا بالحياة الدنيا]الفرح هو حالة الاشباع النفسي ، مثل الطفل تشبع نفسه بمجرد حصوله على لعبة يريدها فبعض الناس تكون نفوسهم ضيقة تشبع بمجرد ان تواتيها الدنيا ، فالانسان الذي تشبع نفسه يغفل عن مسؤوليته ، و لا يجد للالتزام داعيا

[وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع]المتاع هي الكماليات مما ليس ضروريا ، حيث يمكن الاستغناء عنها او الاستعاضة بغيرها اذا اهترأت بلى إن الحياة مزرعة الآخرة ، هنا عمل بلا حساب ،و هناك حساب بلا عمل

ان الذي يعلم أنه محتاج الى الله يجب عليه أن يرتبط معه

يحكى ان ملكا كان يخوض حربا ضروسا ، فنذر نذرا : ان هو انتصر ليزيدن في اجر الجند ، فبعد ان انتصر قدر المبلغ فوجده كبيرا ، فأراد ان يخلف نذره ، فاستقر رأيه أخيرا ان يحتكم لدى أول من يدخل عليه ، فبينما هو جالس في مجلسه اذ دخل عليه اعرابي فاحتكم اليه، فقال له الاعرابي : ان كنت ترى انك لن تحتاج الى ربك فلا تف بنذرك معه ،

وان كنت ترى انك ستحتاج اليه فاوف بنذرك معه ، فرأى الملك انه محتاج الى الله في كل لحظة ، فوفى نذره

كيف يطمئن القلب :ويقول الذين كفروا لو لا أنزل عليه آية من ربه]الانسان الذي يريد النظر يكفيه البصيص من النور ، اما الذي لا يريد ان يبصر فضوء الشمس لا يكفيه

[قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب]

يريد الانسان الهداية فيهديه الله ، ويريد الضلالة فيمد الله له في ضلالته وهذا واضح من الاسم الموصول من الذي يطلق للعاقل

[الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله]:الاطمئنان : السكون والاستقرار

والقلب المطمئن هو نفسه النفس المطمئنة كما قال سبحانه في آخر سورةالفجر : يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي الى ربك راضية مرضية فأدخلي في عبادي وأدخلي جنتي وذكر الله هو مطلق توجه الانسان لله

[ألا بذكر الله تطمئن القلوب]

في زحمة الحياة و مع تراكم الاعمال ، ومع جو الارهاق والعمل ، واثناء القلق النفسي الذي يعصف بالكثيرين تركن النفس وتطمئن لذكر الله ، وحري بنا ان نعالج مشاكلنا النفسية بذكر الله لأنه انجح علاج يمكن ان يستفيد منه الانسان خاصة في هذا الزمن ، زمن التيارات والصراعات التي يغذيها الاستعمار شرقه وغربه

[الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب]بعد ذكر صفات المؤمنين ذكر مصيرهم بقوله : أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم فنعم عقبى الدار

اما الآن فيذكر مصيرهم بأن لهم طوبى وحسن مآب ولعل المراد من الطوبى الحياة الأعظم طيبا

وهذا يدلل لنا أن للمؤمنين في الجنة في كل يوم صنف جديد من النعيم ، فلا هم يملون ، ولا الله يقتر عليهم

من هو الكافر ؟

معنى الكافر

الكافر في اللغة العربية هو المنكر والجاحد ، وهو أيضاً المنكر للنعمة المتناسي لها ، وهو ضدّ الشاكر

أحكام الكفار

أما المراد منه في الشريعة الإسلامية فهو المقابل للمسلم ، فمن أنكر الأركان العقائدية الثلاثة : التوحيد والنبوة والمعاد عُدّ كافراً ، وعليه فالكافر يشمل

١ ـ المُلحد الذي لا يعترف بوجود الله تعالى

٢ ـ المُشرك ، وهو الذي يعترف بوجود الله ولكن يُشرك معه في ألوهيته أرباباً آخرين

٣ ـ الوثني ، وهو الذي يعتقد بوجود إله أو آلهة غير الله سبحانه وتعالى

٤ ـ من أنكر نبوة نبي الإسلام محمد (صلَّى الله عليه وآله) أو رسالته

٥ ـ من أنكر المعاد يوم القيامة

٦ ـ وألحَقَ الفقهاء بالكافر من أنكر ضرورياً ـ أي بديهياً ـ من ضروريات الدين الإسلامي ، كالصلاة والحج

أقسام الكافر

ثم إن الكافر ينقسم إلى :

١ ـ الكافر الأصلي : وهو الذي لم ينتحل الإسلام وولد على الكفر

٢ ـ الكافر المُرتد : وهو الذي انتحل الإسلام ثم كفر ثانية بعد إسلامه

والكافر المُرْتَدُّ ينقسم إلى :

١ ـ المرتد عن فطرة : وهو الذي ولد على الإسلام ثم كفر

٢ ـ المرتد عن الملة : وهو الذي كان كافراً فأسلم ثم كفر

الكفر في الإسلام هو مصطلح شامل لكل البشر (الغير مؤمنين بالله والمشركين به) أياً كانت معتقداتهم وتوجهاتهم وذلك لأن المؤمن بالله

كافر بما سواه والمؤمن بغير الله كافر بالله، وقد يعثر على الكفر في سياق آخَر مثل الجحود بالنعمة، أو نكران الفضل، ومنه اشتق التكفير وهو الحكم على شخص ما أو جماعة بالإلحاد، أي إبعاده وإخراجه عن مبادئ دين الجماعة، مصدر التكفير من كفر أي حكم بتكفيره، فالتكفير هو نسبة أحد من أهل القبلة – أي المسلمين – إلى الكفر والكفر درجات عند العلماء، فهناك كفر دون كفر أي دون الخروج عن الملة

بالرغم من أن الكفر هو مصطلح شامل إلا أنه شائع الاستخدام لوصف الكافر بالله والمشرك به، وتترتب على الكفر بالله عقوبة في الدنيا لمن كان على الإسلام وهي القتل لكن ليس على عمومه فهي مسألة خلافيّة لها أبعاد كثيرة، وأما من لم يكن على الإسلام (أهل الكتاب) فإن المسلمين يعتقدون بكفر بعضهم من الذين يعتقدون أن عيسى بن مريم هو ابن الله، ولم يوجب الله لهم عقوبة في الدنيا، إلا أن يدفعوا الجزية والتي جبايتها أمر واجب على والي المسلمين من غير المسلمين وفي المقابل ليس عليهم القتال لحماية بيضة البلاد، ولا يتعرض لهم أحد من المسلمين بالأذى، ولا

توبة لمن مات على الكفر كما ذُكر في القرآن: إِنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغفِرُ ما دون ذلك لمن يشاء

أصل التسمية

كلمة كفر كما وردت في العديد من المعاجم العربية ومنها لسان العرب لابن منظور تعني غطّى، فتقول كفَرَ الشيءَ أي غطّاه، كفرَ الليلُ بظلامه أي غطى نورَ النهار وحجبه ومن ثم يقال ليل كافر، وكفر الفلاحُ الحبَ، ومنه قيل للزرّاع الكفار، وبهذا المعنى جاء في الآية القرآنية: كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ (الحديد ٥٧: ٢٠) كما أن الكفر يستخدم بمعني جحود النعمة وعدم شكرها كما جاء في القرآن الكريم وبنعمة الله هم يكفرون (النحل ١٦: ٧٢) والمعنى اللغوي هذا يتفق مع حكم الإسلام بالكفر على أهل الكتاب من الأحبار والرهبان الذين كانوا يعلمون بأن نبياً سيأتي من بعد عيسى (ص) ولكنهم كفروا أي غطوا هذه الحقيقة وحجبوها، ومن ثم ينصب معنى الآيات التي تحكم بكفر من قال إن الله هو المسيح ابن مريم (المائدة ٥: ١٧) أو قال إن الله ثالث ثلاثة (المائدة ٥: ٧٣) فقط على تلك

الفئة التي ادعت ذلك رغم علمها بحقيقة المسيح، وتطور معنى الكفر ليصبح نقيض الإيمان

التعريف الديني

بشكل عام، يجب التفريق بين الكفر ابتداءً والكفر ردة فالكفر ردة أمره إلى الله وعذابه صريح فقط يوم القيامة ومختلف على عقابه في الدنيا أما الكفر ابتداءً فلا بد من النظر إلى حال هؤلاء الكفار من حيث وصول الإسلام إليهم، بمعنى أنه لابد أن تصلهم صورة صحيحة عن الإسلام

الكفر ابتداءً

يمكن تعريف الكفر بأنه إنكار شخص ما، الدين الإسلامي جحوداً، ويشترط أغلب المسلمين في أن، لابد أن تصله صورة صحيحة عن الإسلام فإذا رفضها حينها تعمداً واستكباراً فهو كافر؛ ولذلك يربط القرآن في آيات كثيرة بين الحكم بالكفر وبلوغ الدعوة ومعرفة الحق والهدى فقد ورد في القرآن: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُم (محمد ٤٧:

حيث جعل القران بيان الهداية شرطاً للحكم بالكفر كما أن معاداة النبي مشروطتان ببيان الهدى فإذا لم يتبين فالعداوة متوقعة، ولابد من التفكر في اختيار لفظ الهُدَى الذي يعني انشراح الصدر والطمئنينة لدعوة ما، وليس فقط مجرد سماعها أو القراءة العابرة عنها والهُدَى يتضمن الاقتناع والإعجاب بالدين والمقصود وصول الدعوة لغير المسلم واضحة ويساوي أبو حامد الغزالي في كتابه (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) بين من لم تصلهم رسالة الإسلام أصلا وبين من وصلتهم صورة مشوهة عنه وعن نبيه فكلاهما معذور، كما يعتبر محمد الغزالي في (مع الله، دراسات في الدعوة والدعاة) من وصلته صورة محرفة ومنفرة عن الإسلام بالجاهل الذي لا يدري حقيقة الدين وهو معذور قياساً على الآية القرآنية ذلك بأنهم قوم لا يعلمون (التوبة ٩: ٦)، ويرى الكثير، أن من كفر بالإسلام متأثراً بالصورة السيئة التي وصلته عنه يُعد كافراً فقط بهذه الصورة لا كافراً بحقيقة الإسلام التي لم تصله أصلاً، كما يجب التفريق بين اليهود والنصارى من منظور فهمهم للألوهية حيث أن اليهود لا يقولون بالتثليث

الكفر ردة

اتفق المسلمون على أن الكفر ردة هو انكار المسلم أحد مبادئ الإسلام أو أحد أركان الإسلام أو الإصرار على مخالفة أحكام الإسلام العقائدية والعملية ولكنهم اختلفوا في تفصيل هذه المبادئ والأركان والمخالفات

موقف المسلمين من الكافر

نظرا لاختلاف المسلمين في تحديد تعريف واحد للكافر فقد اختلفوا في تحديد موقفهم ممن يتهم بالكفر، خصوصا من يتهم بالكفر ردة وبشكل عام فإن أغلب أهل السنة والجماعة يتحدد موقفهم من خلال عقيدة الولاء والبراء بينما تحدد أغلب طوائف الشيعة موقفها استنادا إلى موقف المخالفين لهم في إنكار مبدأ الإمامة

اختلف موقف المسلمين من الكافر فالبعض يؤمن بقتال الكافر بعد عرض الإسلام عليه وعدم استجابته للدخول فيه، والبعض الآخر يرى عدم مقاتلة الكفار المسالمين غير المقاتلين، نزولا إلى بعض الطوائف التي لا تؤمن بقتال الكافر أصلا وقد ورد تفصيل عن هذا التدرج في الكفر في كتاب د

يوسف القرضاوي وعنوانه ظاهرة الغلو في التكفير وهناك كتاب آخر للشيخ عبد الله بن محمد القرني باسم (ضوابط التكفير عند أهل السنة) وكتاب آخر من تأليف سميرة بنت عائض القحطاني باسم (ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة)

صفات الكافرين في سورة هود

(كِتَابٌ)مَصْدَرٌ مَأْخُوذٌ مِنْ الكُتْب ومعناه الضَمُ والجَمْعُ، ومِنْهُ الكَتِيبةُ للجُنْد، لاجتماعها، ومنه يظهر وجه تَسْمِيةُ القرآن بالكتاب

قولُه تعالى (أُحْكِمَتْ)من الإحْكَام، وقد عُبِّر عنه بالماضى لبيان الواقع والمراد منه ومن أمثاله الاستمرار ماضياً أو مضارعاً كما في قوله تعالى (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

قوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)، يتعلق به مباحث:

المبحث الأول: في ربط الآيةِ الكريمة بما قبلها وما بعدها، وهو أنَّهُ تعالى لمَّا ذَكَرَ فيما تَقَدَم ما يدلُ على الوِحْدَانِية بقوله تعالى (أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ، وذَكَرَ ما يدل على قدرتِه بقوله (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، وما يدل على علمِه بقولِه (يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)، وفي أثناء ذلك ما يدل على الوَعْدِ والوعيد والترغيب والترهيب - أرْدَفَهُ بما يدل على أنَّهُ تعالى عَالِمٌ بالمعلوماتِ كُلِها بالآيةِ التي قبلها، وبما يدل على كونهِ تعالى قادراً على الممكناتِ بأسرها بالآية التي بعدها وهي قولُه تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)، لِأنَّ الإله الواحد يجب أنْ يكون عِلْمُه مُحِيطاً بالمعلوماتِ كُلِها وأنْ تكون قُدْرَتُه شاملةً للممكنات بأسْرِها، وفي ذلك تقريرٌ للتوحيد فيما تقدم؛ لأن من شمل علْمه وعَمَّت قدرتُه هو الذي يكون إلهاً لا غيره، ممَّا لا يعلم ولا يقدر على ضُرٍ ولا نفعٍ؛ وتأكيدٌ للوعد والوعيد فيما سبق؛ لأن العَالِم القادر هو الذي يُرْجَى ثَوَابُه ويُخْشَى عقابه هذا هو الربط الأول، وهو وجيه

المبحث الثاني: وقِيلَ في الربط أيضاً إنَّه تعالى أخبرَ برزقِ الجميع وهو يَسْتَدْعِي العِلْمُ بالمَرزُوقِ وأنَّه لا يغفل عن تربيتهِ ورعايتهِ، فكيف تَخفَى عليه أحوالكُم يا معشرَ الكفار وهو يرزقكم؟!

المبحث الثالث: ويَجُوز أنْ يُقال في وجه الربط أيضا إنَّ الآية الأولى راجعةٌ لقولِه تعالى (يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)، تقريراً وتأكيداً لها، والثانيةُ راجعةٌ لقولِه تعالى (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، تقريراً وتأكيداً لها، ويكون فيه لف ونشر مشوش؛ حيث رجَعَ الأول للثاني والثاني للأول؛ والوجه هو الأولى وعلى ذلك تِكُون الثانية معطوفة على الأولى من عطْفِ الجمل لاشتراكِهما في أنَّ كلاً منهما تأكيد لما قبلها، والآيةُ الأولى مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنها جوابٌ عن سؤالٍ نشأ عن الكلام السابق تقديره ما الذي يدلُ على إحاطةِ علمِه وكمالِ قدرتِه تعالى كما هو شأن الإله؟ فقِيلَ جواباً عنه (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ) والواو لا تمنع الاستئناف والفَصْل؛ لأنَّ الفَصْل معناه ترك العطف لا العاطف

صفات الكافرين:

قولُه تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

وجه ربط هذه الآية وما بعدها بما قبلها، أنها بيانٌ لأوصافِ الكفار القبيحة الكبيرة المختلفة التي اشتملت عليها، وعددها أربعةَ عشر وصفا: أولها: افتراءُ الكَذبِ على اللهِ تعالى؛ وآخرها: كَوْنُهم في الآخرةِ أخسرُ الخاسِرين، وذلك بعد أنْ ذَكرَ فيما سَبَقَها أوصافاً ذميمة لهم وطرقا مختلفة؛ منها شدة حرصِهم على الدنيا ورغبُتهم في تحصِيلها وإنكارهم الآخرة، فبين هذه الصفة وأبْطَلَها بقولهِ تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا) ومنها أنَّهم كانوا يُنْكِرُون نُبوَّةَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ويَقْدَحُون في مُعْجِزَاتِه، وقد بين الله تلك وأبْطَلَها بقولِه تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ)ومنها ما معنا، فهى مستأنفة نَحَويَّاً لِبيان صفةٍ من صفاتِهم القبيحة تلى ما سَبَقَها، والمناسِبة للقُبْحِ في السابقِ واللاحق ويجوز أن تكون معطوفة على الآيةِ التي قَبْلَها وهي قوله جَلَّ شأنه: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ) إلخ، وذلك بنِسْبَتِهم إليهِ سبحانه ما لا يليق بهِ كقولهم: الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عما يقولون عُلُّواً كبيرا، وقولِهم لآلِهَتِهم (هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)؛ أو إنْكَارِهم ما أنزل الله والمُرَادُ من الجُمَلة الاسْتِفهَامِيِّة

المُبَالغة في ذمِ هؤلاء الكفار؛ بأنهم مع كَوْنِهِم كافرين بآياتِ الله يفترون عليه سبحانه كَذِبا، أيْ لا أحد أَظْلَمُ ممن اخْتَلَقَ على الله كذباً، فكَذَبَ عليه وزعم أنَّ له شريكاً أو ولداً وهى تدلُ على أنَّ الكَذِبَ على اللهِ أعْظَمُ أنواع الظُلْم والمراد نفى أن يكون هناك أحدٌ أظْلَمَ مِمَنْ افترى على اللهِ كذباً أو مساوياً له في الظلم كما يُنَبِّئُ عنه ما سَبَقَ إلى قولِه تعالى (لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمْ الأَخْسَرُونَ)، لذلك إذا قلت من أكرمُ من فلان؟ فالمراد أنَّهُ أكرمُ مِنْ كلِ كريم، فـ (مَنْ) في قوله تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ) للاسِتِفْهام الإنكاري كما قُدِّر ويجوز أن يكون هذا التركيب مَسُوقاً مَسَاقَ الكلامِ المُنْصِف؛ أَي لا أحدٌ أظلمُ منكم إنْ جَعَلْتُم ما ليس كلاماً للهِ كلاماً لهُ كما زَعَمْتُم، ولا أحد أظلم منكم إنْ نَفَيْتُم أنْ يكون كلامُه سبحانه مع تَحَقُق كَوْنِه كلامُه جَلَّ شأنه وفيه من الوَعيد الشديد والتهويل ما لا يَخفى

قولَه تعالى (أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ) كلامٌ مُسْتَأْنَف استئنافاً بيانياً جواباً عن سؤالٍ عنْ جزاء هؤلاء، كأنَّ سائلاً قال ما جَزَاء هؤلاء؟ فَقِيلَ (أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ) وليس العَرْضُ خاصاً بهم بل هو عامّ لكلِ العباد كما قال تعالى في سورة الكهف (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا)، وإنَّمَا

هو عَرْضٌ خاصٌّ الغَرَضُ منه فَضِيحَتَهم؛ يقول الملائكة عند عَرْضِهم (هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ)، وهذا العَرْضُ هو الصفة الثانية من الصفات التي ذُكِرَت لتَقْبِيح الكافرين والإشارةُ بقولِه تعالى (أُوْلَئِكَ) للمَوْصُوفِين بالظُّلمِ البالغِ الذي هو الافتراءُ على الله تعالى باعتبار معناه لا باعتبار لفْظِه وهي إشارةٌ إلى (مَنْ أَظْلَمُ) باعتبارِ وَصْفِهم بالظلمِ البالغِ وعلى ذلك لا يحتاج إلى تقدير محذوف كما قَدَّرَهُ بَعْضُهم بقولهم أي تُعْرَضُ أعمَالُهم لأن عَرْضَهم من حيث ظُلْمِهم عرضٌ لأعمالِهم على وجهٍ أبْلغ لأنْ عَرْضَ العاملِ مَعَ عَمَلِه أفْظَعُ من عَرْض عَمَلِه مع غَيْبَتِه

ومعنى (عَلَى رَبِّهِمْ) أي على مَالِكِهِم الحْق المُتَصَرِف فِيهم حيثما يريد وفيه دليلٌ على بُطْلان رأيهم في اتخاذِهم أرباباً مِن دون الله تعالى وفي عَرْضِهم على ربِهم مع قولِه (الأَشْهَادُ) مِنْ الخِزْيِ والنَكَال ما لا مزيد عليه وعَرْضُهم على ربِهم إنَّما على أمَاكِن ربِهم المُعَدَّة للسُؤال والحساب في يوم القيامةِ، فيَسْألُهُم عن أعمالِهم التي قَدَمُوها في الدنيا، أو على ملائكةِ ربِهم أو على أنبياءِ ربهم وعلى ذلك لا يُقَال إنَّ العَرْض على الربِ يَسْتَلْزِم المكان؛ وهو على الله مُحَال، والعَرْضُ على الربِ بِكَيْفية تليقُ به

جل شأنه قولُه تعالى (وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ)هو معطوف على قولِه تعالى (يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ) فهو خبر أيضا عن اسم الإشارة في قولِه تعالى (أُوْلَئِكَ) أي يَقول الأشهادُ أولئك مُشِيرين إليهم: (هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ)، وهي جملة في محل نصب مقول القول والمراد بالأشهاد؛ قِيلَ الملائكة مُطْلَقا؛ وقِيلَ الملائكة مِن الحَفَظَة الذين يَحْفَظُون أعمال بني آدم؛ وقِيلَ الملائكة والأنبياء والمؤمنون؛ وقِيل جَميع أهلِ المَوْقِف حتى جَوَارِحَهم؛ لأنَّ المراد بهذا القَوْل فَضِيحَتَهُم عَلى رؤسِ الأشهاد يوم القيامة وخِزْيهم والأشْهَاد جَمْعُ شَاهِد كأصحاب جمع صاحب أو كشريف وأشراف والمراد بهم الحَاضِرون في المَوْقِف عِنْد العَرْض، أي يَقُول الحَاضِرون عِنْد العَرْض في المَوْقِف (هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ) بالافْتَراءِ عليه وهيَ شهادةٌ بتَعْيِينْ مَنْ صَدَرَ مِنْهُ ذلك لِفَضِيحَتِه، لا شهادةً بِصُدُورِ ذَلك مِنْهُم، كأن صُدُورُهُ مِنْهُم وَاضِحٌ غَنىٌ عَن الشهادةِ بِوُقُوعِه، وإنما المُحْتَاج إلى الشهادة تَعْيِين مَنْ صَدَرَ مِنْهُ ذلك، فلذلك لا يقولون هؤلاء كَذَبُوا على ربِهم بدون الموصول ويُحْتَمَل أنْ يَكُون ذلك ذَمَّاً لهم بهذه المقالة الشنعاء لا شهادةً عليهم بتَعْيِينِهم كَمَا يُشْعِر

بذلك التعبير بقوله تعالى (وَيَقُولُ الأَشْهَادُ) دون يَشْهَد، والمراد المبالغة في فَضِيحَتِهِم، وهذه هي الصفة الثالثة من صفات الكافرين المذمومة

قولُه تَعَالى (أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)يُحْتَمل أن يَكونَ مِنْ كِلامِه تعالى، أي أنَّه مُبْتَدأٌ مِنْ جهتِه سبحانه ويقعَ جَوَاباً عن سؤالٍ مُقَّدر تقديرُه: ماذا كانَ مِن اللهِ تعالى بعد قَوْلِ الأشهاد؟ قال: (أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)، أي يقولُ اللهُ لهم ذلكَ يومَ القيامة، فيَلْعنُهم ويَطردهم مِنْ رحمتِه وقِيلَ يَقُولُه لهم في الحال؛ لأنه لمَّا أَخْبَرَ عَنْ حَالِهم في عقابِ يومِ القيامة أَخْبَرَ عَنْ حَالِهم بقولِه تعالى (أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) فَبيَّن أنَّهم مَلْعُونُون مِن الله تعالى في الحال ويُحْتَمَل أنْ يكونَ مِنْ كلامِ الأشهاد، ويكون قوله تعالى (هَؤُلاَءِ) مبتدأ، و(الَّذِينَ) صفةٌ لهم، والخَبَر جملة (أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) ويَكُون فِيه الإظْهَار في مَقَامِ الإضْمِار، أي ألا لعنة الله عليهم، وذلك لذمهم مع الإشارة إلى علةِ الحكم أيْ لظلْمِهم والمراد بالظالمين الظالمون بالإفتراء، وقِيلَ بما هو أَعرُ من الإفتراء وغيره وعلى كل حالٍ سواءً أكان مِن كلامِ اللهِ تعالى أو من كلامِ الأشهاد فهذه هي الصفة الرابعة من صفات الكفار المذمومة وممَّا يُؤكِد أنَّه من كلام الأشهاد ما رواه الشيخان

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ يَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ، فَيَقُولُ: أَيْ عَبْدِي! تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ! حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قَالَ: إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ غَفَرْتُهَا لَكَ الْيَوْمَ، قَالَ: ثُمَّ أُعْطِيَ كِتَابَ حَسَنَاتِه، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ، فَيَقُولُ: الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ

قولُه تعالى (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)هذه هي الصفة الخامسة من صفات الكافرين المُنْكِرين الجاحدين، وهي كَوْنُهم صَادِّينَ الناسَ عن سبيلِ الله، مَانِعِيهم عَنْ متابعة الحق، فهي إمَّا متعدية والمفعول محذوف كما قُدِّر، أي يَصدون كل مَنْ يَقْدِرُون على صَدِّه، وإمَّا لازمة أيْ يفعلون الصَّدَّ عن سبيلِ الله، كيعطى ويمنع وهو أبْلَغ في الذم، يعنى أنَّهم ظَلَموا أنفسَهم بالتزامِ الكفر والضلالِ؛ فقَدْ أضافوا إليه المَنْعَ من الدين الحق وإلقاء الشبُهات وتَعْوِيج الدلائل المستقيمة، وبذلك ظَهر كَوْن (الَّذِينَ يَصُدُّونَ) صفةٌ للظالمين أي الظالمين الصَادِّين عن سبيل الله والمراد مِنْ (سَبِيلِ اللَّهِ)

الدين القويم، فإطْلاقِه عليه كالصراطِ المستقيم من باب المجاز بالاستعارة حيث شَبَّهَ الدين القويم بالسبيل وبالصراط بجامع الوصول إلى المطلوب في كلٍ

قولُه تَعَالى (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)معطوفٌ على قولِه تعالى (يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) وهي الصفة السادسة من صفات المنكرين الجاحدين وهي أَنَّهُم يَطْلُبُون لدينِ الله الاعْوِجَاج، أي الانحراف بإلْقَاء الشُبُهَات وتَعْوِيج الدلائل المستقيمة، والمراد أنَّهم يصفُونَها بالاعْوِجَاج والانحراف وهي أَبْعَدُ شيء عَنْه وإطْلاقُ (يَبْغُونَهَا) وإرَادُة الوَصْف مِنْها من باب المجاز المُرْسَل لعلاقة السَبَبِيَّة والمُسَبَّب لهُ فإنَّ طَلَبَ الإعْوِجَاج نَشَأَ عَنْهُ الوصف به

وقِيلَ إنَّ الكلامَ عليهِ حَذْفٌ مُضَافٌ، أي يَبْغُونَ لأهلِها العوجَ أي ينحرفوا عنها ويَرْتدوا عن الإسلام وهذا شامل لتَكْذِيبِهم بالقرآن وقولِهم أنَّه ليسَ مِنْ عِنْدِ الله تعالى

قولَه تعالى (وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)هذه هي الصفة السابعة وهي كَوْنُهم كافِرِينَ بالآخرة، وهيَ جملة حَاليَّة مِنْ ضَمِير (يَبْغُونَهَا) أي يَصِفُونَها

بِالعِوَجِ والحَالُ أنَّهُم كافرون بالآخرة والمُرَادُ أنَّهم يُنْكِرُونَ البَعْثَ ولا يُقِرُّونَ به وتكرير الضمير لتأكيدِ كُفْرِهِم واخْتِصَاصِهم بهِ؛ كأنَّ كُفْرَ غَيْرِهِم بها بجَانِبِ كُفْرِهِم لَيْسِ بِكُفْر، والمُرَادُ المَبَالَغَةُ في كُفْرِهِم بالآخرة وتَقْدِيم (بالآخِرَةِ) للتَخْصِيص، أيْ كأنَّ كُفْرهُم مَقْصُورٌ على الآخرة لا يتعداها إلى غيرها وقِيلَ قُدِّمَ مراعاةً لرُءوسِ الآي

قولُه تعالى (أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ)هذه هيَ الصفة الثامنة وهي كَوْنُهم عَاجِزِين عن الفِرَارِ مِنْ عَذَابِ الله تعالى واسم الإشارة مُشَارٌ بِه إلى مَنْ وُصِفُوا بالصِفَاتِ المُتَقَدِمَة التي تُوجِب تَدْمِيرَهم والإعْجَازُ مَعْنَاهُ المَنْعُ مِنْ تَحْصِيلِ المُرَاد، يُقَالُ أَعْجَزَنِي فلان أي مَنَعَني مِنْ مُرَادِي، وعلى ذلك فمعنى (مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ) أي لَمْ يَكُونُوا مُفْلِتِينَ أَنْفُسَهُم مِنْ أَخْذِه تعالى لهم لِأَنهُم لا يُمْكِنَهُم الهَرَب مِنْ عَذَابِهِ، فإنَّ ذَلِكَ مُحَال فَهُوَ سُبْحانَه قَادِرٌ على كل المُمْكِنَاتِ ولا تَتَفَاوَت قُدْرَتُه بالقُربِ والبُعْدِ والقُوةِ والضعْفِ والتصْرِيح بِذكِرِ الأرْض للدلالة على أنَّها مَعَ سِعَتها لا يمكنهم الهَرَبُ مِنْ العذاب فيها وإنْ هَرَبُوا فيها كُلَ مَهْرَبٍ إذا طَلَبَهم جَلَّ شَأْنُه وقِيلَ إنَّهَا مجاز عَنْ الدنيا والعلاقة الكُلِية والجُزْئية

قولُه تعالى (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ)هذه هي الصفة التاسعة وهِي أنَّهم ليس لهم أولياءَ يَدْفَعون عنهم عذاب الله، والمُراد منه الرَدُّ عليهم في وَصْفِهم الأصنام بأنَّها شفعاؤهم عند الله تعالى؛ والمقصود منه ومِمَّا قبله إِقْنَاطُهم مِنْ رحمة الله حيث نَفَى عنهم قُدْرَتهم على الفرار من العذاب بأنفسهم بالأول، وأنَّه لا قدرة لأحدٍ على تَخْلِيصِهم من ذلك العذاب بالثاني، فجمع الله تعالى بين ما يَرجِع إلى أنفسِهم وما يَرجِع إلى غيرهم؛ وبَيَّنَ بذلك انقطاع حَبْلِهم في الخَلاص منْ العذاب إذا أراده الله تعالى ومِنْ في قولِه تعالى (مِنْ أَوْلِيَاءَ) زائدة في اسم كان لاسِتِغْرَاق النفى وجَمْع أولياء من باب مقابلة الجمع بالجمعِ، أي مَا كانَ لأحدٍ منْهم مِنْ وَلىّ، أو يكون باعتبار تَعدد ما كانوا يعبدون مِنْ دون الله تعالى؛ وعلى ذلك يكون بياناً لحال آلهتهم وسقوطِها عَنْ رُتْبة الولاية، يعني ومَا كان لهؤلاء المشركين مِنْ أنصار يَمْنَعُونَهم مِنْ دون الله إذا أراد بهم عذاباً ومِنْ هذا يَتَبَيْنُ موقع قولِه سبحانه (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ) وهو إمَّا العطفُ على خَبَر (أُوْلَئِكَ) وإمَّا حالٌ مِنْ ضميرهم؛ أَي لمْ يكونوا مُعْجِزِين في حال انْتِفَاءِ الأولياء عنهم وإنما لم يُنْزِل العذاب بِهم - بعد ما بَيَّنَ أَنَّهُ لا دَافِعَ

لِلعذابِ مِنْ جهتهم ولا مِنْ غَيْرِهم - لِيُمْهِلَهُم كيْ يتوبوا مِنْ كُفْرِهم، فإنْ أَبَوْا إلَّا الثَّبَاتَ عَلى الكُفْر فلابدَّ مِنْ مُضَاعَفة العذاب لهم في الآخرة، ولهذا قالَ تعالى (يُضَاعَفُ لَهُمْ الْعَذَابُ)- هذه هي الصفة العاشرة - وهي جملة مُسْتَأنفة جواب عن السؤال عَمَا يَحِلُ بهم، كأنَّه قِيلَ سَبب مضاغفة العذاب كفرهم بالمَبْدَأ والمعاد، إذْ كفروا بالله خالقهم ومُبْدِئهم، وباليوم الآخر الذي أُعِدَّ فِيه جَزَاءُهم والأرجَح أنْ يكون السبب هو أنَّهم ضلوا ضلالاً بعيداً وأَضَلوا الناس عن الدين الحق وصَدُّوا عن سبيل الله؛ فعَليهم عذابهم وعذاب مَنْ أَضلوهم وقُرِئَ (يُضَعَّفُ) بالتشديد، ولذلك قِيل إنَّ هذه الجملة الكريمة مُتَضمِنةً لحكمةِ تأخير العذاب وهي المضاعفة التي لا تكون إلا في هذه الآخرة

قولُه تعالى (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُون)وهذه هي الصفة الحادية عشرة، وهي اسْتِثْقَالِهم لسماع الحق كما جاء به صلى الله عليه وسلم وكراهيتهم له إلى أقصى الغايات؛ حتى كأنهم لا يستطيعونه وهي جملة مُسْتَأْنَفة جواباً عن سؤالٍ مُقَّدَر عَنْ سبب مضاعفة العذاب، كأنَّه قِيل ما لهم اسْتَوْجَبوا تلك المضاعفة؟ فَقِيل جَوَاباً: لأنهم كَرِهُوا الحق

فاسْتَثْقَلوا سَمَاعَه أعظَم اسْتِثْقَال، وتَعَامُّوا عن آيات الملك المتعال، الواضحة في الأَنْفُس والآفاق والمراد أنَّهم أهملوا مُقْتَضَى السِمْع ونَفَروا منه، كما يقول القائل (هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه، أو هذا كلام يمُجُه سمعى) ففيه استعارة تَبَعية، حيث شبه اسْتِثْقَالهم للحق ونفورهم منه وعدم قَبولهم له، بعدم السمع، بجامع مطلق عدم العمل في كل أو عدم التأثر به

قولُه تعالى (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ)هذه هي الصفة الثانية عشرة، وهي كَوْنُهم خَسروا أنفَسهم في الدنيا والآخرة؛ في الدنيا، بسبب افترائهم على الله الكَذِبَ (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) وقولِهم لآلِهَتِهم (هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)؛ وإنْكَارِهم ما أَنْزَلَ اللهُ وأنَّهم كَرِهوا الحق فاسْتَثْقَلوا سَمَاعَه، وتَعَاموا عن آيات الله تعالى (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُون) كما تقدم، فحَقَّ عليهم العذاب في الآخرة مضَاعفا (يُضَاعَفُ لَهُمْ الْعَذَابُ) وقِيل الذين خسروا أنفسهم بسبب تبديلهم الهدايةَ بالضلالةِ والآخرةَ بالدنيا، وضاع عنهم ما حصلوه بذلك التبديل من متاع الحياة الدنيا والرياسة وهذه هي التجارة الخاسرة (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)؛ من دون الله من أولياء؛ فلم يهتدوا إليهم ولم يجدوهم ليَدْفعوا

عنهم عذاب الله في الأخرة؛ وهذه هي الصفة الثالثة عشر من صفات الكافرين، كما لم يستطع أولياؤهم من دون الله تعالى أن يدفعوا عذاب الله عنهم فِي الأَرْضِ إذا أراد الله بهم العذاب (أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ)، كما تقدم

ووجه ربط هذه الآية بما قبلها وهو قوله تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) الآية، بزعمهم أن لله تعالى شركاء، كما تقدم، فلم يجدوا أولياءَهم مِنْ دونِ الله تعالى ليَرُدُوا عنهم عذاب الله في الآخرة في قوله تعالى(وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)، وقِيل وجه ربط هذه الآية بما قبلها قوله تعالى (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ)في الدنيا والآخرة بأنهم كرهوا الحق فاستثقلوا سماعه وتعاموا عن آيات الله بعد قوله تعالى في الآية السابقة (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُون)

وجه ربط هذه الآية بما بعدها قوله تعالى (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) في الدنيا والآخرة ثم خُتِمَتْ الآيات بقولِه تعالى (لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ) وهذه هي الصفة الرابعة عشر والأخيرة، وهي نتيجة ما تَقَدَم

من وصفهم بالصفات القبيحة؛ أيْ هم أخسر من كلِ خاسرٍ وأظلم من كلِ ظالمٍ وفي (لاَ جَرَمَ) أربعة أوجه:

الأول: أنَّ (لاَ) نافية لمَا سَبَق ورَدٌّ له، أيْ لا يَنفعُهم قولهم: هذه الآلهة تشفع لنا عند الله، و(جَرَمَ) فعلٌ ماضٍ بمعنى حَقَّ، و(أَنَّ) وما دَخَلَتْ عليه في تأويل مصدر فاعله، أي ثَبُتَ وحَقَّ خُسرانهم، وهذا مذهب سيبويه

الثاني: أنَّ (جَرَمَ) فعل ماض بمعنى كَسَبَ والمصدر مفعوله، وفاعله ما دلَّ عليه الكلام السابق، أيْ كسب ذلك القول المتقدم خُسْرانهم، أي ما حَصَّل ذلك القول إلا ظهور خُسرانهم

الثالث: أنَّ (لاَ) مع (جَرَمَ) كلمتان رُكِّبَتَا تركيب (خمسة عشر) وصار معناها (حقاً)، والمصدر المنسبك بعدها فاعله؛ لأنه صفةُ مُشَبِهُهُ، وهو منصوب على المفعول المطلق (لَحَقَّ)، أي حَقَّ حَقاً أي الآخرةِ خُسرانهم الرابع: وقِيلَ إنَّ (لاَ) نافية للجنس و(جَرَمَ) اسمها، وخبرها المصدر المنسبك مِنْ (أَنَّ) على تقدير حذف حرف الجر (في)؛ أي (لا جَرَمَ في

أَنَّهُمْ الأخسرون) ويعنى (لاَ جَرَمَ) لامَحَالة في خسرانهم وعلى كلٍ فالمراد أنهم أَخْسَرُ مِنْ كلِ خَاسِرٍ

وهذه الآيات الكريمة المتقدمة إلى هُنَا مُقَرِّرَةٌ لِمَا سَبَقَ مِنْ المُمَاثَلَة بين كلٍ مِنْ (مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ)(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا)، أبلغَ تقرير، فإنَّهُم حيث كانوا أظلمَ مِنْ كلِ ظالمٍ وأَخْسَرَ مِنْ كلِ خَاسِرٍ؛ لَمْ يُتَصَوَّر مُمَاثَلَةً بينهم وبين أحدٍ من الظَلَمُة الخَاسِرِين، فما ظَنُّكَ بالمُمَاثَلَةِ بينهم وبَيْنَ مَنْ هُمْ في أعلى درجات الكمال؟

قولُه تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وجه اتصالِها بما قبلها أنَّها واقعةٌ جواباً لسؤالٍ نشأ مِمَّا قَبْلَها تقديرهُ إذا كان هذا حال الكفرة فما حال المؤمنين؟ فقال (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) الآية، لأنه جل شأنه لما ذَكَرَ فريقَ الكافرين وأعمالهم وبَيَّنَ مصيرَهم ومَآلَهم، اقتضى ذِكْرُ حال أضَّدَادِهم وهم المؤمنون، لِأَنَّ الضِّدَ أَقْرُب خُطُوراً بالبالِ عند ذكر ضِّدِه، فشَرَعَ يُبَيِّن حالَهم ومِمَّا يَؤُلُ إليه أمرُهم مِنْ العواقب الحميدة تَكْمِلَةً لمَا سَلَف مِنْ

محَاسنهم المذكورة في قولِه تعالى (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ)- - الآية لِيَتَبَيَّنَ ما بينهما من التَبَايُن البَيِّن، حالاً ومَآلاً، فقِيلَ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) أي صَدَّقُوا بكل ما يجب التصديق به فيندرج فيه ما نحن بصدده من الإيمان بالقرآن الذي عُبِّرَ عنه بالكذب في الآية الكريمة (عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ)، وذلك لا يكون إلا باسْتِمَاع الحق ومشاهدة الآيات الآفاقِية والأنْفُسِية والتَدَبُّرِ فيها، وهذا مع ملاحظة المتعلق، ويصح ألا يُلْحَظ، ويكون المراد (فعَلِمُوا الإيمان واتصَفوا بهِ) وعملوا الأعمال الصالحات؛ والمراد بها ما يشمل الترغيب في سُلوك سبيل الله تعالى ونحوه مما على ضده فريق الكفار (وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ) الإخْبَات في اللغة هو الخُشُوع و الخُضُوع وطُمَأْنِينة القلب، وهو يتعدى بإلى وباللام، فإذا قُلْتَ أَخْبَتَ فلان إلى كذا فمعناه اطْمَأَن إليه، وإذا قُلْتَ أَخْبَتَ له فمعناه خَشَعَ وخضع له، فقولُه تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) إشارة إلى جميع أعمال الجوارح، وقولُه (وَأَخْبَتُوا) إشارة إلى أعمال القلوب، وهي الخشوع والخضوع لله عزَّ وجَل، فإذا فسرنا الإخْبَات بالطُمَأْنِينة؛ كان معنى الكلام أنَّهم يأتون بالأعمال الصالحة مطمئنين إلى صِدْقِ وَعْد اللهِ بالثواب والجزاء على

الأعمال ويكونون مُطْمَئنين إلى ذكره سبحانه وتعالى، وإذا فسرنا الإخْبَات بالخُشُوع والخُضُوع؛ كان معناه أنَّهم يأتون بالأعمال الصالحة خائفين وَجْلِين ألا تكون مقبولة، ومثل هذا أو قريب منه قولُه تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)

صفات الكافرين كما وردت بسورة الحج والحذر من الوقوع فيها

الصفة الأولى: إتباع سبيل الشيطان

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّـهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن من الناس من يجادل في الله بغير علم ؛ أي : يخاصم في الله بأن ينسب إليه ما لا يليق بجلاله وكماله ،ومع جدالهم فى الباطل يتبعون كل شيطان مريد ؛ أي : عات طاغ من شياطين الإنس والجن

الصفة الثانية: المجادلة فى الله بغير علم والإستكبار عن إتباع سبيل المؤمنين

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّـهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ ۖ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩)

وقد بين تعالى في غير هذا الموضع الغرض الحامل لهم على الجدال فيها مع بعض صفاتهم ، وذلك في قوله : ويجادل الذين كفروابالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا

وقوله : ثاني عطفه أي : يخاصم بالباطل في حال كونه ثاني عطفه ؛ أي : لاوي عنقه عن قبول الحق استكبارا وإعراضا

الصفة الثالثة: إنكار البعث والتشكيك فيه

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي

الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)

هذه الآية الكريمة والآيات التي بعدها ، تدل على أن جدال الكفار المذكور في قوله : ومن الناس من يجادل في الله بغير علم يدخل فيه جدالهم في إنكار البعث ولأجل ذلك أقام تعالى البراهين العظيمة على بعث الناس من قبورهم أحياءإلى عرصات القيامة للحساب وفى قوله تعالى وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج هذا برهان قاطع آخر على البعث

الصفة الرابعة : التردد والشك فى عبادة الله ودعاء مالاينفعه ولايضره

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّـهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّـهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ

الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)

في قوله : يدعو من دون الله مالا يضرهراجع إلى الكافر المشار إليه في قوله : وإن أصابته فتنةانقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين؛ أي : يدعو ذلك الكافر المذكور من دون الله ، ما لا يضره ، إن ترك عبادته وكفر به ، وما لا ينفعه إن عبده وزعم أنه يشفع له

الصفة الخامسة : إعتقادهم أن الله لن يؤيد ولن ينصر رسوله

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّـهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)

فليمدد بسبب أى حبل الى السماء أى الى سقف بيته يشده فيه وفى عنقه ثم ليقطع أى يختنق به ويقطع نفسه من الأرض

وحاصل هذا القول : أن الله يقول لحاسديه صلى الله عليه وسلم الذين يتربصون به الدوائر ، ويظنون أن ربه لن ينصره : موتوا بغيظكم ، فهو ناصره لا محالة على رغم أنوفكم

الصفة السادسة : الصد عن سبيل الله

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)

والإلحاد في اللغة أصله : الميل ، والمرادبالإلحاد في الآية : أن يميل ويحيد عن دين الله الذي شرعه ، ويعم ذلك كل ميل وحيدة عن الدين ، ويدخل في ذلك دخولا أوليالكفر بالله ، والشرك به في الحرم ، وفعل شيء مما حرمه ، وترك شيء مما أوجبه ومن أعظم ذلك : انتهاك حرمات الحرم

الصفة السابعة : تكذيبهم لرسل الله

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤)

في هذه الآيات الكريمة تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - بأن الذي عامله به قومه من التكذيب عومل به غيره من الرسل الكرام ، وذلك يسليه ويخفف عليه وذكر تعالى في هذه الآيات سبع أمم كل واحدة منهم كذبت رسولها

الصفة الثامنة : إستعجالهم للعذاب وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّـهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفاريطلبون من النبي - صلى الله عليه وسلم - تعجيل العذاب الذي يعدهم به طغيانا وعنادا

والآيات الدالة على هذاالمعنى كثيرة في القرآن ؛ كقوله تعالى : وقالوا ربنا عجل لناقطنا قبل يوم الحساب

الصفة التاسعة :إجتهادهم الدائم لإبطال القرآن والقاء الشبه حوله للتشكيك فيه وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّـهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّـهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّـهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)وما أرسلنا من قبلك أيها الرسول ـ من رسول ولا نبى ـ إلا إذا قرأ كتاب الله ألقى الشيطان فى قراءته الوساوس والشبهات ليصد الناس عن اتباع ما يقرؤه ويتلوه لكن الله يبطل كيد الشيطان ، فيزيل وساوسه ويثبت آياته الواضحة

الصفة العاشرة : إذا تليت عليهم آيات القرآن ترى الكراهة ظاهرة فى وجوههم وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّـهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)

المنكر : أى الكراهة والعبوس

الصفة الحادية عشر: لاينتفعون بعقولهم ولا بأسماعهم

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)

أفلم يسير المكذبون من قريش فى الأرض ليشاهدوا آثار المهلكين فيتعظوا

والآية تدل على أن محل العقل : في القلب ، ومحل السمع : في الأذن ، فما يزعمه الفلاسفة من أن محل العقل الدماغ باطل

الصفة الثانية عشر :عدم تعظيمهم لله حق تعظيمه

مَا قَدَرُوا اللَّـهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۖ إِنَّ اللَّـهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)

لم يعظموا الله حق عظمته ،ولم يعرفوه حق معرفته ، حيث عبدوا معه من لا يقدر على جلب نفع ،ولا دفع ضر

ونعوذ بالله من صفات أهل النار

البقرة إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) (البقرة)

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) (البقرة)

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢) (البقرة)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) (البقرة)

آل عمران يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) (آل عمران)

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) (آل عمران)

النساء

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) (النساء)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) (النساء)

الأعراف وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) (الأعراف)

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) (الأعراف)

الشعراء

لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦) (الشعراء)

النمل

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) (النمل)

بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا

هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) (النمل)

فصلتوَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) (فصلت)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) (فصلت)فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) (فصلت)

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) (فصلت)

أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (٥٤) (فصلت)

الزخرف

إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) (الزخرف)

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ

إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥) (الزخرف)

ق

بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) (ق)

النجم

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) (النجم)

وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) (النجم)

القمر

وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) (القمر)

لما كان في الأمم كفار ومنافقون، يكفرون ببعض الرسالة دون بعض، إما في القدر وإما في الوصف، كما أن فيهم كفاراً ومنافقين يكفرون بأصل الرسالة، وكان في الكفار بأصل الرسالة من قال: إن الرسول شاعر، وساحر، وكاهن، ومعلم، ومجنون، ومفتري، كما كان رئيس قريش

وفيلسوفها وحكيمها الوليد بن المغيرة الوحيد المذكور في قوله تعالى:{ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} [المدثر:١١ـ ٢٥]

فإنه صَنَع صُنْع الفيلسوف المخالف للرسل في تفكيره أولا؛ الذي هو طلب الانتقال من تصور طرفي القضية إلي المبادئ الموجبة للتصديق ليظفر بالحد الأوسط،ثم قدر ثانياً، والتقدير هو [القياس] وهو الانتقال من المبادئ إلي المطلوب بالقياس المنطقي الشمولي؛ ولعمري إنه لصواب إذا صحت مقدماته، وإن كانت النتيجة في الأغلب أموراً كلية ذهنية، ثبوتها في الأذهان لا في الأعيان، كالعلوم الرياضية من الأعداد والمقادير؛ فإن العدد المجرد عن المعدود والمقدار المجرد عن الأجسام إنما يوجد في الذهن،لكن أنَّي وأكثر مقدماته في الإلهيات دعاوي يدعي فيها بعموم؟ وأن القضية من المسلمات بلا حجة، ومتي لم يكن في القياس قضية كلية

معلومة لم تفد المطلوب، وهم يلبسون المهملات التي هي في معني الجزئيات بالكليات العامة المسلمات، أو يدعي فيها العموم بنوع من قياس التمثيل

ومعلوم أنه لابد في كل قياس من قضية كلية، وعامة القضايا الكلية التي لهم فيها المطالب الإلهية لا يعلم كونها كلية عامة؛ إذ عمومها لا يعلم إلا بمجرد قياس التمثيل الذي قد يكون من أفسد القياس المقتضي لتشبيه الله بخلقه، كما يقولون: الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، وليس معهم إلا تشبيه خالق السموات والأرض ورب العالمين بالطبائع، كطبيعة الماء والنار، مع أن الواحد الذي يثبتونه في الإلهيات، وفي المنطق أيضاً الذين يجعلون قضية الأنواع مركبة منه وهو [الجنس] و[الفصل] لا حقيقة لها، ولا توجد إلا في الأذهان لا في الأعيان، وقد بسطنا الكلام علي ذلك في مواضع وبينا أن ما يثبتونه من العقليات التي هي [الجواهر العقلية] المجردة عن المادة، وهي العقل والنفس، والمادة والصورة التي ليست بجسم ولا عرض، لا حقيقة لها في الخارج، وإنما تقدر في الأذهان، لا في الأعيان، وكذلك ما يثبتونه من الواحد الذي يصفون به واجب الوجود،

ومن الواحد الذي يجعلون الأنواع تتركب منه، إنما يوجد في الأذهان لا في الأعيان؛ و[القياس العقلي] الذي يحتجون به لابد فيه من قضية كلية

والقياس نوعان: قياس الشمول وقياس التمثيل

والناس متنازعون في مسمي [القياس]، فقيل: هو حقيقة في التمثيل مجاز في الشمول، كما ذكر ذلك أبو حامد، وأبو محمد المقدسي وغيرهما وقيل: هو حقيقة في عكس ذلك، كما قاله ابن حزم وغيره من نفاة قياس التمثيل، وقيل : بل اسم القياس يتناولهما، وهذا قول جمهور الناس

واسم [القياس العقلي] يدخل فيه هذا وهذا، لكن من الناس من ظن أن [قياس التمثيل] لا يفيد اليقين، ولا يستعمل في العقليات، كما ذهب إليه أبو المعالي، وأبو حامد، والرازي، وأبو محمد، والآمدي، وآخرون من أهل المنطق وأما الجمهور فعندهم كلا القياسين سواء، وهذا هو الصواب: فإن مآل القياسين إلي شيء واحد، وإنما يختلف بترتيب الدليل؛ فإن القائل إذا قال : النبيذ المتنازع فيه حرام؛ لأنه مسكر، فكان حراماً قياساً علي خمر العنب، فلابد له أن يثبت أن السكر هو مناط التحريم، وهو الذي

يسمي في قياس التمثيل [مناطاً] و[علة] و[أمارة] و[مشتركاً] و[وضعا] ونحو ذلك

ولابد في القياس الصحيح من أن يقيم دليلا علي أن السكر مناط التحريم، بحيث إذا وجد السكر وجد التحريم، فإذا صاغ الدليل بقياس الشمول، فإن النبيذ مسكر وكل مسكر حرام، فالسكر في هذا النظم هو الحد الأوسط المكرر، وهو العلة في قياس التمثيل، ولابد له في هذا القياس من أن يثبت هذه القضية الكلية الكبري، وهي قوله: كل مسكر حرام، فما به ثبتت هذه القضية في هذا النظم يثبت به أنه مناط التحريم في ذلك النظم لا فرق بينهما

وإذا قال القائل : إثبات تأثير الوصف وكونه مناط الحكم هو عمدة القياس، وهو جواب [سؤال المطالبة] وبيان كون الوصف بالشمول هو مناط الحكم، وهذا لا يثبت إلا بأدلة ظنية

قيل له : وإثبات عموم القضية الكبري في قياس الشمول هو عمدة القياس؛ فإن الصغري في الغالب تكون معلومة، كما يكون ثبوت الوصف في

الفرع معلوماً، وإذا كان ثبوت الوصف في الفرع قد يحتاج إلي دليل، كما قيل: تحتاج المقدمة الصغري إلي دليل، وإثبات المقدمة الكبري لا يتأتي إلا بأدلة ظنية، ونفس ما به يثبت عموم القضية يثبت تأثير الوصف المشترك لا فرق بينهما أصلا، واستعمال كلا القياسين في الأمور الإلهية لا يكون إلا علي وجه الأولى والأحرى

وبهذه [الطريقة] جاء القرآن، وهي طريقة سلف الأمة وأئمتها؛ فإن الله سبحانه لا يماثله شيء من الموجودات في [قياس التمثيل]، ولا أن يدخل في [قياس شمول] تتماثل أفراده، بل ما ثبت لغيره من الكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه فهو أحق به، وما نزه عنه غيره من النقائص فهو أحق بالتنزيه منه، كما قال تعالى:{ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ } [النحل:٦٠]، وقال تعالى:{ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ} [الروم:٢٨]

وقد بسطنا الكلام علي هذا في غير هذا الموضع، وبينا أن ما يستفاد بـ [القياس الشمولي] في عامة الأمور قد يستفاد بدون ذلك، فتعلم أحكام الجزئيات الداخلة في القياس بدون معرفة حكم القضية الكلية، كما إذا قيل: الكل أعظم من الجزء، والضدان لا يجتمعان، فما من كل معين وضدين معينين إلا وإذا علم أن هذا جزء هذا،وأن هذا ضد هذا، علم أن هذا أعظم من هذا، وأن هذا لا يجامع هذا، بدون أن يخطر بالبال قضية كلية أن كل ضدين لا يجتمعان، وأن كلَّ كلٍّ فهو أعظم من جزء، وكذلك إذا قيل : النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، فما من نقيضين يعرف أنهما نقيضان إلا ويعرف أنهما لا يجتمعان ولا يرتفعان، بدون أن يستحضر أن كل نقيضين لا يجتمعان، ولا يرتفعان

فعامة المطالب يستغني فيها عن القياس المنطقي المتضمن للكبري الذي لابد فيه من قضية كلية، والأمور المعينات لا تعلم بمجرد القياس العقلي، وإنما يعلم بالقياس القدر المشترك بينها وبين غيرها وهم يسلمون ذلك، وبينا أن الأدلة الدالة علي الصانع هي آيات تدل بنفسها علي نفسه المقدسة، وبينا الفرق بين دلالة الآيات ودلالة القياس، وأن الأدلة أكمل

وأنفع، وطريقة القياس تابعة لها ودونها في المنفعة والكمال، والقرآن جاء بهذه وهذه، ومعرفة الإلهيات، والنبوات وغيرها، فتلك الطريقة أكمل وأتم

وهؤلاء يزعمون أنه لا ينال مطلوب فطري إلا بطريقة القياس الذي لابد فيه من قضية كلية، والقضية الكلية لا تفيد إلا أمراً كلياً عقلياً، لا تفيد معرفة شيء معين، وكل موجود فهو معين، فكيف يقول عاقل مع هذا : إنه لا ينال علم إلا بهذه الطريق؟! ثم إنهم في ضلالهم يظنون أن علم الأنبياء، بل وعلم الرب سبحانه إنما حصل بواسطة القياس المنطقي، وأن النبي له قوة حدسية يظفر بالحد الأوسط في القياس المنطقي بدون معلم، فيكون أكمل من غيره، فيجعلون علمه بالغيب من هذا الباب ولم يدرك بمثل هذا القياس علوماً طبيعية أو حسابية ونحو ذلك، فمن أين أنه لا ينال علم إلا به؟ ومن أين أنه لا مواد يقينية إلا ما يدعيه المدعي مما عنده من الحدسيات المعتادة الظاهرة والباطنة، والبديهيات المعتادة، والمتواترات، والمجربات المعتادة، والحدسيات المعتادة، والحس الباطن، والظاهر، والتجربة، ونحو ذلك لا يعلم بمجرده إلا أمر معين جزئي، وذلك لا يصلح أن يكون مقدمة في القياس، ولكن يعلم في العموم إما بواسطة قياس

تمثيل، وإما بعلم ضروري يحدثه الله في القلب ابتداء، وإذا أحدث علماً ضرورياً عاماً لأفراد فإحداث العلم ببعض تلك الأفراد سهل، فقل أن يستفاد بطريقهم علم بنتيجة إلا والعلم بالنتيجة فيه ممكن بالطريق الذي به عرفت المقدمات أو أسهل، فلا يكون في قياسهم إلا زيادة تطويل وتهويل وتضليل

وقد بسطنا الكلام علي [المنطق اليوناني] بما فيه من حق وباطل، ونافع وضار، في غير هذا الموضع، ونفي العلم إلا بهذا القياس، ونفي كون القياس يقينياً إلا بهذه المقدمات قول بلا علم، وتكذيب بما لم يحط المكذب بعلمه ؛ ولهذا كانت الطريقة النبوية السلفية أن يستعمل في العلوم الإلهية [قياس الأولي] كما قال الله تعالى:{ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [النحل:٦٠]؛ إذ لا يدخل الخالق والمخلوق تحت قضية كلية تستوي أفرادها، ولا يتماثلان في شيء من الأشياء، بل يعلم أن كل كمال لا نقص فيه بوجه ثبت للمخلوق فالخالق أولي به، وكل نقص وجب نفيه عن المخلوق فالخالق أولي بنفيه عنه، وأمثال هذه [الأقيسة العقلية] التي من نوع الأمثال المضروبة في القرآن،

ولله المثل الأعلي، فلما كان الكفار بالرسالة علي ما ذكر، جاء في الكفار ببعضها من شاركهم في بعض ذلك؛ فأنكرت الجهمية أن يكون الله يتكلم أو يقول أو يحب أو يبغض، وأنكروا سائر صفاته التي جاءت بها الرسل، فأنكروا بعض حقيقة الرسالة التي هي كلام الله، وأنكروا بعض ما في الرسالة من صفات الله

وأول من أظهر ذلك في الإسلام وإن كان ذلك موجوداً قبل الإسلام في أمم أخري الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان، وكان علي ما قيل من أهل حَرَّان، وكان فيهم أئمة الفلاسفة، ومنهم تعلم أبو نصر الفارابي كثيراً مما تعلم من الفلسفة علي ما ذكره عبد اللطيف بن يوسف البغدادي، فضحي بالجعد خالد بن عبد الله القسري بواسط علي عهد علماء التابعين وغيرهم من علماء المسلمين، وهم بقايا التابعين في وقته؛ مثل الحسن البصري وغيره الذين حمدوه علي ما فعل، وشكروا ذلك فقال: أيها الناس، ضَحُّوا، تقبل الله ضحاياكم؛ فإني مُضَحٍّ بالجعد بن درهم؛ إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكيماً تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيرا ثم نزل فذبحه

وبنوا ذلك علي قاعدة مبتدعة الصابئين، المكذبين ببعض ما جاءت به الرسل، الذين لا يصفون الرب إلا بالصفات السلبية أو الإضافية أو المركبة منهما، وهم في هذا التعطيل موافقون في الحقيقة لفرعون رئيس الكفار الذي جحد الصانع بالكلية ؛ فإن جحود صفاته مستلزم لجحود ذاته؛ ولهذا وافقوا فرعون في تكذيبه لموسى بأن ربه فوق السموات، حيث قال:{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً } [غافر:٣٦- ٣٧]

بخلاف محمد صلى الله عليه وسلم الذي صدق موسى لما عرج به إلي ربه، وأخبر أنه وجد موسى هناك وأنه جعل يختلف بين ربه وبين موسى، فمحمد صلى الله عليه وسلم صدق موسى في أن ربه فوق السموات، وفرعون كذبه في ذلك والناس إما محمدي موسوي، وإما فرعوني؛ إذ فرعون كذب موسى في أن الله فوق، وكذبه في أن الله كلمه، كما أنكر وجود الصانع، ومحمد صدق موسى في هذا كله وهؤلاء الصابئة المحضة من المتفلسفة يقولون: إن الله ليس له كلام في الحقيقة، لكن كلامه عند من أظهر الإقرار بالرسل منهم ما يفيض علي نفوس الأنبياء، وهو

أنه محدث في نفوسهم من غير أن يكون في الخارج عن نفوسهم لله عندهم كلام، وهكذا كان الجهم يقول أولا: إن الله لا كلام له، ثم احتاج أن يطلق أن له كلاماً لأجل المسلمين فيقول: هو مجاز؛ ولهذا كان الإمام أحمد وغيره من الأئمة يعلمون مقصودهم، وأن غرضهم التعطيل، وأنهم زنادقة، والزنديق المنافق

ولهذا تجد مصنفات الأئمة يصفونهم فيها بالزندقة، كما صنف الإمام أحمد [الرد علي الزنادقة والجهمية]، وكما ترجم البخاري آخر كتاب الصحيح بـ [كتاب التوحيد والرد علي الزنادقة والجهمية]، وكان عبد الله بن المبارك يقول: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية وتقول الصابئة المحضة الذين آمنوا في الظاهر وآمنوا في الباطن ببعض الكتاب: كلام الله اسم لما يفيض علي قلب النبي من [العقل الفعال] أوغيره، و [ملائكة الله] اسم لما يتشكل في نفسه من الصور النورانية وقد يقولون: إن جبريل هو [العقل الفعال] أو هو ما يتمثل في نفسه من الصور الخيالية كما يراه النائم؛ ولهذا يقول هؤلاء: إن خاصة النبي التخييل، وإن الأنبياء أظهروا خلاف ما أبطنوه لمصلحة

العامة، ولم يفيدوا بكلامهم علماً، لكن تخييلا ينتفع به العامة، ويجعلون هذا من أفضل الأمور، ويمدحون الأنبياء بذلك، ويعظمونهم، وقد بسطنا الكلام علي هذا في مواضع أخر

وعندهم ليس خارجاً عن نفس النبي كلام ولا ملك كما يزعمه من يزعمه من المتفلسفة والصابئة المشركين، وزعموا أنهم مؤمنون، وقالوا: إنهم يجمعون بين النبوة والفلسفة، كما يفعل الفارابي وابن سينا وغيرهما من المتفلسفة والقرامطة الباطنية من الإسماعيلية ونحوهم، الذين أخذوا معاني لمتفلسفة الروم والفرس فأخرجوها في قالب التشيع والرفض، والإمامية والزيدية وغيرهم من الشيعة يعلمون أنهم كفار

ومثل ابن سبعين وأمثاله ممن أظهر التصوف علي طريقة هؤلاء، فهو يأخذ معانيهم يكسوها عبارات الصوفية،والصوفية العارفون يعلمون أنهم كفار، وأن شيوخ الصوفية الكبار كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، وعمرو بن عثمان الشبلي، والجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، وأبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي

ونحوهم رضي الله عنهم كانوا من أعظم الناس تكفيراً لهؤلاء؛ فإن قول هؤلاء الزنادقة وإن كان فيه إيمان من وجه آخرفهؤلاء موافقون في الحقيقة لمقدمهم الوحيد الذي قال:{ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} [المدثر:٢٥]، لكن ذاك كفر به كله ظاهراً وباطناً، وهؤلاء قد يؤمنون به ظاهراً، وقد يؤمنون باطناً ببعض صفاته؛ من أنه مطاع عظيم، وأنه رئيس النوع الإنساني، وأن هذا الكلام الذي جاء به كلام عظيم القدر، صادر عن نفس صافية كاملة العلم والعمل، لها ثلاث خصائص تتفرد بها عن غيرها: خصيصة قوة الحدس والعلم، وخصيصة قوة التأثير في العالم السفلي بنفسه، وخصيصة قوة التخيل المطابق للحقائق، بحيث يسمع في نفسه الأصوات، ويري من الصور ما يكون خيالا للحقائق، وأنه يجوز إضافة كلامه إلي الله، وتسميته كلام الله، حيث هو أمر به أمراً خيالياً

وفي الحقيقة عندهم ما يفيض علي سائر النفوس الصافية من العلوم والكلمات هي أيضاً كلام الله مثل ما أنه كلام الله، لكن هو أشرف وخطابه دل علي أنه رسول الخلق تجب عليهم طاعته، التي أخبرت بها الرسل لكن يطلقون عليه أنه متكلم؛ ولهذا يقولون: إن النبوة مكتسبة، فطمع غير

واحد منهم أن يصير نبياً كما طمع السهروردي وابن سبعين وغيرهما من الملحدين

وقد بينا أصول أقوالهم وفسادها في غير هذا الموضع، مثل كلامنا علي إبطال قولهم: إن معجزات الأنبياء قوى نفسانية

وأما المعتزلة ونحوهم، فيوافقونهم في أن الله لا يتكلم في الحقيقة التي يعلم الناس أن صاحبها يتكلم، بل كلامه منفصل عنه، ويزعمون أن ذلك حقيقة، وليس كلامه عندهم إلا أنه خلق في الهواء أو غيره أصواتاً يسمعها من يشاء من ملائكته وأنبيائه من غير أن يقوم بنفسه كلام لا معني ولا حروف، وهم يتنازعون في ذلك المخلوق : هل هو جسم أو عَرَض، أو لا يوصف بواحد منهما؟ ولما ظهر هؤلاء تكلم السلف من التابعين وتابيعهم في تكفيرهم والرد عليهم بما هو مشهور عند السلف، واطلع الأئمة الحذاق من العلماء علي أن حقيقة قول هؤلاء هو التعطيل والزندقة، وإن كان عوامهم لا يفهمون ذلك، كما اطلعوا علي أن حقيقة قول القرامطة والإسماعيلية هو التعطيل والزندقة، وإن كان عوامهم إنما

يدينون بالرفض، وجرت فتنة الجهمية، كما امتحنت الأئمة، وأقام الإمام أحمد إمام السنة، وصديق الأمة في وقته، وخليفة المرسلين، ووارث النبيين فثبت الله به الإسلام والقرآن، وحفظ به علي الأمة العلم والإيمان، ودفع به أهل الكفر والنفاق والطغيان، الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض

فاستقر أهل السنة وجماهير الأمة وأهل الجماعة وأعلام الملة في شرقها وغربها علي الإيمان الذي جاءت به الرسل عن الله، وجاء به خاتم النبيين مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، وهو أن القرآن والتوراة والإنجيل كلام الله، وأن كلام الله لا يكون مخلوقاً منفصلا عنه، كما لا يكون كلام المتكلم منفصلا عنه؛ فإن هذا جحود لكلامه الذي هو رسالته، ودفع لحقيقة ما أنبأت به الرسل وعلمته أممهم، وإلحاد في أسماء الله وآياته، وتمثيل له بالمعدوم والموات؛ فإن الحياة والعلم والقدرة والكلام ونحو ذلك صفات كمال، والرب تعالى أحق بكل كمال، فيمتنع أن يثبت للمخلوق كمال إلا والخالق أحق به، كما يمتنع أن يتنزه المخلوق عن نقص إلا والخالق أحق بتنزهه منه، كيف وهو خالق الكمال للكاملين

وأيضاً، فمن لم يتصف بصفات الكمال؛ من الحياة والعلم والسمع والبصر والقدرة والكلام وغير ذلك، فإما أن يكون قابلا للاتصاف بذلك ولم يتصف به، أو غير قابل للاتصاف به فإن قبله ولم يتصف به كان موصوفاً بصفات النقص؛ كالموت والجهل والعمى والصمم والعجز والبكم باتفاق العقلاء؛ فإنهم متفقون علي أن القابل لهذا ولهذا متي لم يتصف بأحدهما اتصف بالآخروإن قيل : إنه لا يقبل الاتصاف بهذه الصفات كان أنقص من القابل الذي لم يتصف بها، فالحيوان الذي يكون تارة سميعاً وتارة أصم، وتارة بصيرا وتارة أعمي، وتارة متكلما وتارة أخرس، أكمل من الجماد الذي لا يقبل أن يكون لا هذا ولا هذا

فمن لم يصفه بصفات الكمال لزمه إما أن يصفه بهذه النقائص، أو يكون أنقص ممن وصف بهذه النقائص؛ وذلك أن المتفلسفة اصطلحوا علي تقسيم المتقابلين بالنفي والإثبات إلي النقيضين، وإلي ما يسمونه :العدم والملكة، فالعدم عندهم سلب الشيء عما من شأنه أن يكون متصفا به كالعمي والخرس؛ فإنه عدم البصر والكلام عما من شأنه أن يكون بصيراً متكلماً، فأما الجماد فلا يسمونه لا بهذا ولا بهذا

وشبهتهم لبست علي طائفة من أهل النظر، فظنوا أنه إذا لم يوصف بصفات الكمال من الحياة والعلم والسمع والبصر والكلام، لم يلزم أن يتصف بصفات النقص؛ لأنهما متقابلان تقابل العدم والملكة لا تقابل النقيضين فيقال لهم : هذا أولا اصطلاح لكم، وإلا فغيركم يسمي الجماد ميتاً ومواتاً ونحو ذلك، كما في مثل قوله:{ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء} [النحل :٢٠- ٢١]

ويقال لهم ثانياً : النظر في المعاني العقلية، ومعلوم أن عدم هذه الصفات يستلزم النقص الثابت بعدمها

ويقال لهم ثالثاً: إذا قلتم لا يتصف بواحد منهما لكونه لا يقبل ذلك، فهذا النقص أعظم من نقص العمي والصمم والبكم ؛ فإن ما لا يقبل الاتصاف بصفات الكمال أنقص ممن هو قابل لها يمكن اتصافه بها؛ فإنه منه بدأ؛ لا كما يقوله الصابئة ومن وافقهم من الجهمية: إنه ابتدأ من نفس النبي أو من [العقل الفعال] أو من [الهواء] بل هو تنزيل من حكيم حميد، وأنه إليه يعود إذا أسري به من المصاحف والصدور

وصار الإمام أحمد علماً لأهل السنة الجائين بعده من جميع الطوائف، كلهم يوافقه في جمل أقواله، وأصول مذاهبه؛ لأنه حفظ علي الأمة الإيمان الموروث، والأصول النبوية ممن أراد أن يحرفها ويبدلها ولم يشرع ديناً لم يأذن الله به، والذي قاله هو الذي يقوله سائر الأئمة الأعيان، حتي إن أعيان أقواله منصوصة عن أعيانهم، لكن جمع متفرقها، وجاهد مخالفها، وأظهر دلالة الكتاب والسنة عليها، ومقالاته ومقالات الأئمة قبله وبعده في الجهمية كثيرة مشهورة

الجهمية هم نفاة صفات الله، المتبعون للصابئة الضالة

وصارت فروع التجهم تجول في نفوس كثير من الناس، فقال بعض من كان معروفاً بالسنة والحديث: ولا نقول مخلوق، ولا غير مخلوق بل نقف، وباطن أكثرهم موافق للمخلوقية، ولكن كان المؤمنون أشد رهبة في صدورهم من الله وطائفة أخري قالت: نقول: كلام الله الذي لم ينزله غير مخلوق، وأما القرآن الذي أنزله علي رسوله وتلاه جبريل ومحمد والمؤمنون فهو مخلوق، وهؤلاء هم [اللفظية]

فصارت الأمة تفزع إلي إمامها إذ ذاك، فيقول لهم أحمد: افترقت الجهمية علي ثلاث فرق: فرقة تقول: القرآن مخلوق؛ وفرقة تقول: كلام الله وتسكت، وفرقة تقول : ألفاظنا وتلاوتنا للقرآن مخلوقة فإن حقيقة قول هؤلاء أن القرآن الذي نزل به جبريل علي قلب رسول الله صلي الله عليه وسلم هو قرآن مخلوق، لم يتكلم الله به، وكان لهؤلاء شبهة كون أفعالنا وأصواتنا مخلوقة، ونحن إنما نقرأه بحركاتنا وأصواتنا، وربما قال بعضهم: ما عندنا إلا ألفاظنا وتلاوتنا، وما في الأرض قرآن إلا هذا، وهذا مخلوق

فقابلهم قوم أرادوا تقويم السنة فوقعوا في البدعة، وردوا باطلا بباطل، وقابلوا الفاسد بالفاسد، فقالوا: تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة، وألفاظنا به غير مخلوقة؛ لأن هذا هو القرآن، والقرآن غير مخلوق، ولم يفرقوا بين الاسم المطلق والاسم المقيد في الدلالة، وبين حال المسمى إذا كان مجرداً، وحاله إذا كان مقرونا مقيداً فأنكر الإمام أحمد أيضاً علي من قال: إن تلاوة العباد وقراءتهم وألفاظهم وأصواتهم غير مخلوقة، وأمر بهجران هؤلاء، كما جَهَّم الأولين وبَدَّعَهم

والنقل عنه بذلك من رواية ابنه عبد الله وصالح والمروزي وفوران وأبي طالب وأبي بكر بن صدقة وخلق كثير من أصحابه وأتباعه وقد قام أخص أتباعه أبو بكر المروزي بعد مماته في ذلك، وجمع كلامه، وكلام الأئمة من أصحابه وغيرهم؛ مثل عبد الوهاب الوراق [هو أبو الحسن عبد الوهاب بن عبد الحكم بن نافع الوراق البغدادي، صدوق، نسائي الأصل، وثقه النسائي والدارقطني وابن حبان والخطيب، مات سنة ٢٥٠هـ] والأثرم، وأبي داود السجستاني، والفضل بن زياد [هو أبو العباس الفضل بن زياد البغدادي، الذى يقال له : الطستي يروى عن إسماعيل بن عياش وأهل العراق، كان ثقة]

ومثنى بن جامع الأنباري، ومحمد بن إسحاق الصنعاني، ومحمد ابن سهل بن عسكر [هو أبو بكر محمد بن سهل بن عسكر بن عمارة بن دويد، ويقال: ابن عسكر بن مستور بدل عمارة التميمي، الحافظ الجوال

وثقه النسائي وابن عدي، سكن بغداد، ومات بها في شعبان سنة ٢٥١هـ] وغير هؤلاء من علماء الإسلام، وبيّن بدعة هؤلاء الذين يقولون: إن تلاوة

العباد وألفاظهم بالقرآن غير مخلوقة وقد ذكر ذلك الخلال في كتاب [السنة] وبسط القول في ذلك، قال الخلال: أخبرني أبو بكر المروزي، قال: بلغ أبا عبد الله عن أبي طالب أنه كتب إلى أهل نَصِيبين: إن لفظي بالقرآن غير مخلوق، قال أبو بكر : فجاءنا صالح بن أحمد، فقال: قوموا إلى أبي، فجئنا فدخلنا على أبي عبد الله، فإذا هو غضبان شديد الغضب، قد تبين الغضب في وجهه، فقال: اذهب فجئني بأبي طالب، فجئت به، فقعد بين يدي أبي عبد الله، وهو يرعد، فقال : كتبت إلى أهل نصيبين تخبرهم عني أني قلت: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟!! فقال: إنما حكيت عن نفسي، قال: فلا يحل هذا عنك ولا عن نفسي، فما سمعت عالماً قال هذا

قال أبو عبد الله : القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف، فقيل لأبي طالب: اخرج وأخبر أن أبا عبد الله قد نهى أن يقال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فخرج أبو طالب فلقى جماعة من المحدثين فأخبرهم: أن أبا عبد الله نهاه أن يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق ومع هذا فكل واحدة من الطائفتين : الذين يقولون : لفظنا بالقرآن غير مخلوق، والذين يقولون:

لفظنا وتلاوتنا مخلوقة تنتحل أبا عبد الله وتحكى قولها عنه، وتزعم أنه كان على مقالتها؛ لأنه إمام مقبول عند الجميع؛ ولأن الحق الذي مع كل طائفة يقوله أحمد، والباطل الذي تنكره كل طائفة على الأخرى يرده أحمد، فمحمد بن داود المصِّيصي أحد علماء الحديث وأحد شيوخ أبي داود وجماعة في زمانه كأبي حاتم الرازي وغيره يقولون : لفظنا بالقرآن غير مخلوق، وتبعهم طائفة على ذلك، كأبي عبد الله بن حامد، وأبي نصر السجزي، وأبي عبد الله بن منده،وشيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري، وأبي العلاء الهمداني، وأبي الفرج المقدسي، وغير هؤلاء يقولون: إن ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة، و يروون ذلك عن أحمد،وأنه رجع إلى ذلك، كما ذكره أبو نصر في كتابه [الإبانة]، وهي روايات ضعيفة بأسانيد مجهولة لا تعارض ما تواتر عنه عند خواص أصحابه، وأهل بيته، والعلماء الثقات، لا سيما وقد علم أنه في حياته خطأ أبا طالب في النقل عنه، حتى رده أحمد عن ذلك، وغضب عليه غضباً شديداً

وقد رأيت بعض هؤلاء طعن في تلك النقول الثابتة عنه ومنهم من حرفها لفظاً، وأما تحريف معانيها فذهب إليه طوائف، فأما الذين ثبتوا

النقل عنه ووافقوه على إنكاره الأمرين، وهم جمهور أهل السنة ومن انتسب إليهم من أهل الكلام كأبي الحسن الأشعري وأمثاله، فإنه ذكر في [مقالات أهل السنة والحديث] أنهم ينكرون على من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، ومن قال: لفظي به غير مخلوق، وأنه يقول بذلك

لكن من هؤلاء من تأول كلام أحمد وغيره في ذلك بأنه منع أن يقال: إن القرآن يلفظ به، وهذا قاله الأشعري وابن الباقلاني والقاضي أبو يعلى وأتباعه، كأبي الحسن بن الزاغوني وأمثاله

ثم هؤلاء الذين تأولوا كلامه على ذلك منهم من قال : المعنى الذي أنكره أحمد على من قال: لفظي بالقرآن مخلوق كما فعل ذلك الأشعري وأتباعه

ومنهم من قال: بل المعنى الذي أنكره أحمد على من قال: لفظي به غير مخلوق كما فعل ذلك القاضي وابن الزاغوني وأمثالهما؛ فإن أحمد وسائر الأئمة ينكرون أن يكون شيء من كلام الله مخلوقاً، حروفه أو معانيه، أو أن يكون معنى التوراة هو معنى القرآن، وأن كلام الله إذا عبر عنه بالعربية يكون قرآناً، وإذا عبر عنه بالعبرانية يكون هو التوراة، وينكرون

أن يكون القرآن المنزل ليس هو كلام الله، أو أن يطلق القول على ما هو كلام الله بأنه مخلوق، وأحمد والأئمة ينكرون على من يجعل شيئاً من أفعال العباد أو أصواتهم غير مخلوق؛ فضلا عن أن يكون قديماً! وكلام أحمد في [مسألة التلاوة والإيمان والقرآن] من نمط واحد، منع إطلاق القول بأن ذلك مخلوق؛ لأنه يتضمن القول بأن من صفات الله ما هو مخلوق، ولما فيه من الذريعة، ومنع أيضاً إطلاق القول بأنه غير مخلوق لما في ذلك من البدعة والضلال ولما كان أحمد قد صار هو إمام السنة، كان من جاء بعده ممن ينتسب إلى السنة ينتحله إماماً، كما ذكر ذلك الأشعري، في [كتاب الإبانة] وغيره، فقال: إن قال قائل : قد أنكرتم قول [الجهمية] و[المعتزلة] و [الخوارج] و [الروافض] و [المرجئة] فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون

قيل له: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا وسنة نبينا، وما روى عن الصحابة والتابعين، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل قائلون، ولما خالفه مجانبون، فإنه الإمام الكامل،

والرئيس الفاضل، الذي أبان الله به الحق، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكين

وذكر جملا من المقالات

فلهذا صار من بعده متنازعين في هذا الباب فالطائفة الذين يقولون: لفظنا وتلاوتنا غير مخلوقة ينتسبون إليه، ويزعمون أن هذا آخر قوليه، أو يطعنون فيما يناقض ذلك عنه، أو يتأولون كلامه بما لم يرده

والطائفة الذين يقولون: إن التلاوة مخلوقة، والقرآن المنزل الذي نزل به جبريل مخلوق، وإن الله لم يتكلم بحروف القرآن، يقولون: إن هذا قول أحمد، وأنهم موافقوه، كما فعل ذلك أبو الحسن الأشعري، فيما ذكره عن أحمد، وفسر به كلامه، وذكر أنه موافقه، وكما ذكر القاضي أبو بكر الباقلاني في تنزيه أصحابه من مخالفة السنة وأئمتها كالإمام أحمد، وكما فعله أبو نعيم الأصبهاني في كتابه المعروف في ذلك، وكما فعله أبو ذر الهروي، والقاضي عبد الوهاب المالكي، وكما فعله أبو بكر البيهقي في الاعتقاد في مناقب الإمام أحمد وروي عنه أنه قال: لفظي بالقرآن

مخلوق، وتأول ما استفاض عنه من الإنكار على من قال: لفظي بالقرآن ير مخلوق، على أنه أراد الجهمي المحض الذي يزعم أن القرآن الذي لم ينزل مخلوق

وكذلك أيضاً افترى بعض الناس على البخاري الإمام صاحب [الصحيح]، أنه كان يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، وجعلوه من [اللفظية]، حتى وقع بينه وبين أصحابه، مثل محمد بن يحيى الذهلي، وأبي زُرْعَة، وأبي حاتم، وغيرهم بسبب ذلك، وكان في القضية أهواء وظنون، حتى صنف [كتاب خلق الأفعال]، وذكر فيه ما رواه عن أبي قدامة، عن يحيى بن سعيد القَطّان أنه قال: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: أفعال العباد مخلوقة

وذكر فيه ما يوافق ما ذكره في آخر كتابه [الصحيح] من أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله يتكلم بصوت، وينادي بصوت، وساق في ذلك من الأحاديث الصحيحة والآثار ما ليس هذا موضع بسطه، وبين الفرق بين الصوت الذي ينادي الله به وبين الصوت الذي يسمع من العباد، وأن

الصوت الذي تكلم الله به ليس هو الصوت المسموع من القارئ، وبين دلائل ذلك، وأن أفعال العباد وأصواتهم مخلوقة، والله تعالى بفعله وكلامه غير مخلوق

وقال في قوله:{مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [الأنبياء:٢]، إن حدثه ليس كحدث المخلوقين، وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم إن الله يحدث من أمره ما شاء، وإن مما أحدث ألا تَكَلَّمُوا في الصلاة وذكر عن علماء السلف: أن خلق الرب للعالم ليس هو المخلوق، بل فعله القائم به غير مخلوق، وذكر عن نعيم بن حماد الخزاعي: أن الفعل من لوازم الحياة، وأن الحي لا يكون إلا فعالا، إلى غير ذلك من المعاني التي تدل على علمه وعلم السلف بالحق الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول

وذكر أن كل واحدة من طائفتي [اللفظية المثبتة والنافية] تنتحل أبا عبد الله، وأن أحمد بن حنبل كثير مما ينقل عنه كذب، وأنهم لم يفهموا بعض

كلامه لدقته وغموضه، وأن الذي قاله وقاله الإمام أحمد هو قول الأئمة والعلماء، وهو الذي دل عليه الكتاب والسنة

ورأيت بخط القاضي أبي يعلى رحمه الله على ظهر [كتاب العدة] بخطه، قال: نقلت من آخر [كتاب الرسالة] للبخاري في أن القراءة غير المقروء، وقال : وقع عندي عن أحمد بن حنبل على اثنين وعشرين وجهاً كلها يخالف بعضها بعضاً، والصحيح عندي أنه قال: ما سمعت عالما يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق

قال : وافترق أصحاب أحمد ابن حنبل على نحو من خمسين قال أبو عبد الله البخاري: قال ابن حنبل: [اللفظي] الذي يقول: القرآن بألفاظنا مخلوق

وكان أيضاً قد نبغ في أواخر عصر أبي عبد الله من الكلابية ونحوهم أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري، الذي صنف مصنفات رد فيها على الجهمية والمعتزلة وغيرهم، وهو من متكلمة الصفاتية، وطريقته يميل فيها إلى مذهب أهل الحديث والسنة، لكن فيها نوع من البدعة ؛ لكونه أثبت قيام الصفات بذات الله ولم يثبت قيام الأمور

الاختيارية بذاته، ولكن له في الرد على الجهمية نفاة الصفات والعلو من الدلائل والحجج وبسط القول ما بين به فضله في هذا الباب، وإفساده لمذاهب نفاة الصفات بأنواع من الأدلة والخطاب، وصار ما ذكره معونة ونصيراً وتخليصاً من شبههم لكثير من أولى الألباب، حتى صار قدوة وإماما لمن جاء بعده من هذا الصنف الذين أثبتوا الصفات، وناقضوا نفاتها، وإن كانوا قد شركوهم في بعض أصولهم الفاسدة، التي أوجبت فساد بعض ما قالوه من جهة المعقول، ومخالفته لسنة الرسول

وكان ممن اتبعه الحارث المحاسبي، وأبو العباس القلانسي، ثم أبو الحسن الأشعري، وأبو الحسن بن مهدي الطبري، وأبو العباس الضبعي، وأبو سليمان الدمشقي،وأبو حاتم البستي، وغير هؤلاء المثبتين للصفات المنتسبين إلى السنة والحديث، المتلقبين بنظار أهل الحديث

وسلك طريقة ابن كُلاب في الفرق بين [الصفات اللازمة] كالحياة و [الصفات الاختيارية] وأن الرب يقوم به الأول دون الثاني-كثير من المتأخرين، من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد، كالتميميين أبي الحسن

التميمي، وابنه أبي الفضل التميمي، وابن ابنه رزق الله التميمي، وعلى قيدة الفضل التي ذكر أنها عقيدة أحمد اعتمد أبو بكر البيهقي فيما ذكره من مناقب أحمد من الاعتقاد

وكذلك سلك طريقة ابن كلاب هذه أبو الحسن بن سالم وأتباعه [السالمية]، والقاضي أبو يعلى وأتباعه، كابن عقيل، وأبي الحسن بن الزاغوني، وهي طريقة أبي المعالي الجويني، وأبي الوليد الباجي، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم، لكنهم افترقوا في القرآن، وفي بعض المسائل على قولين بعد اشتراكهم في الفرق الذي قرره ابن كلاب كما قد بسط كلام هؤلاء في مواضع أخر

والإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة كانوا يحذرون عن هذا الأصل الذي أحدثه ابن كلاب، ويحذرون عن أصحابه، وهذا هو سبب تحذير الإمام أحمد عن الحارث المحاسبي ونحوه من الكلابية

ولما ظهر هؤلاء ظهر حينئذ من المنتسبين إلى إثبات الصفات من يقول: إن الله لم يتكلم بصوت، فأنكر أحمد ذلك، وجَهَّمَ من يقوله، وقال: هؤلاء

الزنادقة إنما يدورون على التعطيل، وروى الآثار في أن الله يتكلم بصوت، وكذلك أنكر على من يقول: إن الحروف مخلوقة، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب [السنة] : قلت لأبي : إن هاهنا من يقول: إن الله لا يتكلم بصوت، فقال: يابني، هؤلاء جهمية زنادقة، إنما يدورون على التعطيل

وذكر الآثار في خلاف قولهم

وكذلك البخاري صاحب [الصحيح] وسائر الأئمة، أنكروا ذلك أيضاً، وروى البخاري في آخر [الصحيح]، وفي كتاب [خلق الأفعال] ما جاء في ذلك من الآثار، وبين الفرق بين صوت الله الذي يتكلم به وبين أصوات العباد بالقرآن؛ موافقة منه للإمام أحمد وغيره من الأئمة، حيث بين أن الله يتكلم بصوت كما جاءت به الآثار، وأن ذلك ليس صوت العبد بالقراءة، بل ذلك هو صوت العبد، كما قد نص على ذلك كله في مواضع، وعامة أئمة السنة والحديث على هذا الإثبات والتفريق، لا يوافقون قول من يزعم أن الكلام ليس فيه حرف ولا صوت، ولا يوافقون قول من يزعم أن

الصوت المسموع من القراء وألفاظهم قديمة، ولا يقولون: إن القرآن ليس إلا الحروف والأصوات

وقد كتبت كلام الإمام أحمد ونصوصه، وكلام الأئمة قبله وبعده في غير هذا الموضع، فإن جواب هذه [المسألة] لا يحتمل البسط الكثير، ولم يكن في كلام الإمام أحمد ولا الأئمة أن الصوت الذي تكلم الله به قديم، بل يقولون: لم يزل الله متكلماً، وقد يقولون: لم يزل الله متكلما إذا شاء بما شاء، كما يقول ذلك الإمام أحمد، وابن المبارك، وغيرهما

وكذلك قد تنازع الناس في زمنهم وبعده- من أصحابهم وغيرهم في معنى كون القرآن غير مخلوق، هل المراد به أن نفس الكلام قديم أزلي كالعلم ؟ أو أن الله لم يزل موصوفاً بأنه متكلم يتكلم إذا شاء ؟ على قولين

ذكرهما الحارث المحاسبي عن أهل السنة، وأبو بكر عبد العزيز في [كتاب الشافي] عن أصحاب الإمام أحمد، وذكرهما أبو عبد الله بن حامد في كتابه [أصول الدين]

والنزاع في ذلك بين سائر طوائف السنة والحديث، هذا مبنى على أصل [الصفات الفعلية الاختيارية]، والنزاع فيه بين جميع الطوائف من أهل الحديث والسنة والفقه والتصوف ومن دخل معهم من أهل المذاهب الأربعة وبين سائر الفرق، حتى بين الفلاسفة أيضاً، وقد حققت ذلك في غير هذا الموضع

وهذا منشأ نزاع الذين وافقوا السلف على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، فإن هؤلاء تنازعوا في أن الرب هل يتكلم بمشيئته وقدرته؟ على قولين

فالذين وافقوا ابن كلاب قالوا: إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، بل كلامه لازم لذاته كحياته، ثم من هؤلاء من عرف أن الحروف والأصوات لا تكون قديمة العين فلم يمكنه أن يقول : القديم هو الحروف والأصوات؛ لأنها لا تكون إلا متعاقبة، والصوت لا يبقى زمانين، فضلا عن أن يكون قديماً، فقال:القديم هو معنى واحد، لامتناع معاني لا نهاية لها، وامتناع التخصيص بعدد دون عدد

فقالوا: هو معنى واحد، وقالوا: إن الله لا يتكلم بالكلام العربي والعبري،وقالوا :إن معنى التوراة والإنجيل والقرآن وسائر كلام الله معنى واحد، ومعنى آية الكرسي وآية الدَّيْن معنى و احد

إلى غير ذلك من اللوازم التي يقول جمهور العقلاء:إنها معلومة الفساد بضرورة العقل

ومن هؤلاء من عرف أن الله تكلم بالقرآن العربي والتوراة العبرية، وأنه نادى موسى بصوت وينادي عباده بصوت، وأن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه؛ لكن اعتقدوا مع ذلك أنه قديم العين، وأن الله لم يتكلم بمشيئته وقدرته

فالتزموا أنه حروف وأصوات قديمة الأعيان لم تزل ولا تزال، وقالوا:إن الباء لم تسبق السين، والسين لم تسبق الميم، وإن جميع الحروف مقترنة بعضها ببعض اقتراناً قديماً أزلياً لم يزل ولا يزال، وقالوا: هي مترتبة في حقيقتها وماهيتها غير مترتبة في وجودها

وقال كثير منهم : إنها مع ذلك شيء واحد، إلى غيرذلك من اللوازم التي يقول جمهور العقلاء: إنها معلومة الفساد بضرورة العقل

ومن هؤلاء من يقول: هو قديم، ولا يفهم معنى القديم فإذا سئل عن ذلك قال: هي قديمة في العلم، ولا يعلم أن المخلوقات كالسماء والأرض بهذه المثابة مع أنها مخلوقة، ومنهم من يقول : قديم بمعنى أنه متقدم على غيره، ولا يعرف أن الذين قالوا: إنه مخلوق لا ينازعون في أنه قديم بهذا المعنى، ومنهم من يقول: إن مرادنا بأنه قديم أنه غير مخلوق، ولا يفهم أنه مع ذلك يكون أزليا لم يزل، وهؤلاء سمعوا ممن يوافقهم على أنه غير مخلوق، قالوا: هو قديم، فوافقوا على أنه قديم، ولم يتصوروا ما يقولونه

كما أن من الناس من قال: هو غير مخلوق، وأراد بذلك أنه غير مكذوب، وهذا مما لم يتنازع فيه الناس، كما لم يتنازعوا في أنه قديم بمعنى أنه متقدم على غيره

والقول الثاني: قول من يقول: إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته مع أن كلامه غير مخلوق

وهذا قول جماهير أهل السنة والنظر، وأئمة السنة والحديث، لكن من هؤلاء من اعتقد أن الله لم يكن يمكنه أن يتكلم في الأزل بمشيئته، كما لم يكن يمكنه عندهم أن يفعل في الأزل شيئاً، فالتزموا أنه تكلم بمشيئته بعد أن لم يكن متكلماً، كما أنه فعل بعد أن لم يكن فاعلا، وهذا قول كثير من أهل الكلام والحديث والسنة

وأما السلف والأئمة فقالوا: إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته، وإن كان مع ذلك قديم النوع بمعنى أنه لم يزل متكلما إذا شاء؛ فإن الكلام صفة كمال، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يكون متكلماً بمشيئته وقدرته، ومن لا يزال متكلما بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام ممكنا له بعد أن يكون ممتنعاً منه، أو قدر أن ذلك ممكن، فكيف إذا كان ممتنعاً؟ لامتناع أن يصير الرب قادراً بعد أن لم يكن، وأن يكون التكلم والفعل ممكنا بعد أن كان غير ممكن ؟ كما قد بسط هذا في مواضع أخر وكانت [اللفظية الخلقية] من أهل الحديث يقولون: نقول: إن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، وإن التلاوة غير المتلو

والقراءة غير المقروء

و [اللفظ المثبت] يقولون: نقول: إن ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة، والتلاوة هي المتلو، والقراءة هي المقروء

وأما المنصوص الصريح عن الإمام أحمد، وأعيان أصحابه، وسائر أئمة السنة والحديث، فلا يقولون: مخلوقة ولا غير مخلوقة، ولا يقولون: التلاوة هي المتلو مطلقاً، ولا غير المتلو مطلقاً كما لا يقولون: الاسم هو المسمى، ولا غير المسمى

وذلك أن [التلاوة والقراءة] كاللفظ قد يراد به مصدر تلى يتلو تلاوة، وقرأ يقرأ قراءة، ولفظ يلفظ لفظاً، ومسمى المصدر هو فعل العبد وحركاته، وهذا المراد باسم التلاوة والقراءة

واللفظ مخلوق، وليس ذلك هو القول المسموع الذي هو المتلو

وقد يراد باللفظ الملفوظ، وبالتلاوة المتلو، وبالقراءة المقروء، وهو القول المسموع، وذلك هو المتلو، ومعلوم أن القرآن المتلو الذي يتلوه العبد،

ويلفظ به غير مخلوق، وقد يراد بذلك مجموع الأمرين، فلا يجوز إطلاق الخلق على الجميع ولا نفي الخلق عن الجميع

وصار ابن كلاب يريد بالتلاوة القرآن العربي، وبالمتلو المعنى القائم بالذات، وهؤلاء إذا قالوا: التلاوة غير المتلو، وهي مخلوقة، كان مرادهم أن الله لم يتكلم بالقرآن العربي، بل عندهم أن القرآن العربي مخلوق وهذا لم يقله أحد من أئمة السنة والحديث

ويظن هؤلاء أنهم يوافقون البخاري أو غيره ممن قد يفرق بين التلاوة والمتلو، وليس الأمر كذلك

ومن الآخرين من يقول: [التلاوة] هي المتلو، ويريد بذلك أن نفس ما تكلم الله به من الحروف والأصوات هو الأصوات المسموعة من القراء، حتى يجعل الصوت المسموع من العبد هو صوت الرب، و هؤلاء يقولون: نفس صوت المخلوق وصفته هي عين صفة الخالق، وهؤلاء [اتحادية، حلولية في الصفات] يشبهون النصارى من بعض الوجوه، وهذا لم يقله أحد من أئمة السنة

ويظن هؤلاء أنهم يوافقون أحمد وإسحاق وغيرهما، ممن ينكر على [اللفظية]، وليس الأمر كذلك ؛ فلهذا كان المنصوص عن الإمام أحمد وأئمة السنة والحديث أنه لا يقال: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، ولا غير مخلوقة، ولا أن التلاوة هي المتلو مطلقاً، ولا غير المتلو مطلقاً ؛ فإن اسم القول والكلام قد يتناول هذا وهذا؛ ولهذا يجعل الكلام قسيما للعمل ليس قسماً منه في مثل قوله تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } [فاطر:١٠]، وقد يجعل قسما منه كما في قوله: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الحجر:٩٢- ٩٣]، قال طائفة من السلف: عن قول لا إله إلا الله، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لاحسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار، فقال رجل: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل؛ ولهذا تنازع أصحاب أحمد فيمن حلف :لا يعمل اليوم عملا، هل يحنث بالكلام؟ على قولين

ذكرهما القاضي أبو يعلى وغيره ولم تكن [اللفظية الخلقية] ينكرون كون القرآن كلام الله، حروفه ومعانيه، وأن الله يتكلم بصوت، بل قد

يقولون: القرآن كله كلام الله، حروفه ومعانيه؛ فإن الله يتكلم بصوت، كما نص عليه أحمد والبخاري وغيرهما من الأئمة، وكما جاءت به الآثار، ولكن يقولون: المنزل إلى الأرض من الحروف والمعاني ليس هو نفس كلام الله الذي ليس بمخلوق، بل ربما سموها حكاية عن كلام الله، كما يقوله ابن كلاب، أو عبارة عن كلام الله كما يقوله الأشعري، وربما سموها كلام الله؛ لأن المعنى مفهوم عندهم

ولكن لما حدث أبو محمد بن كلاب وناظر المعتزلة بطريق قياسية سلم لهم فيها أصولا هم واضعوها؛ من امتناع تكلمه تعالى بالحروف، وامتناع قيام [الصفات الاختيارية] بذاته مما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال والكلام وغير ذلك؛ لأن ذلك يستلزم أنه لم يخل من الحوادث، وما لم يخل من الحوادث، فهو حادث اضطره ذلك إلى أن يقول: ليس كلام الله إلا مجرد المعنى، وأن الحروف ليست من كلام الله، وتابعه على ذلك أبو الحسن الأشعري؛ وإن تنازعا في أن الرب كان في الأزل آمراً ناهيا، أو صار آمراً ناهيا بعد أن لم يكن، وفي أن [الكلام] هل هو صفة واحدة كما يقوله الأشعري، أو خمس صفات كما يقوله ابن كلاب

وصار هؤلاء مخالفين لأئمة السنة والحديث في شيئين:

أحدهما : أن نصف القرآن من كلام الله، والنصف الآخر ليس كلام الله عندهم، بل خلقه الله في الهواء، أو في اللوح المحفوظ، أو أحدثه جبريل، أو محمد صلى الله عليه وسلم

وهؤلاء في كونهم جعلوا نصف القرآن مخلوقاً موافقين لمن قال بخلقه، لكن هؤلاء يقولون: إن هذا النصف المخلوق كلام الله، وأولئك يقولون: هو مخلوق منفصل عن الله، وهو كلامه، لكن أولئك لا يجعلون لله كلاماً متصلا به قائماً بنفسه، ولا معاني ولا حروفاً

وهؤلاء يقولون: لله كلام قائم به متصل به هو معنى

فصار أولئك أشد بدعة في نفيهم حقيقة الكلام عن الله، وفي جعلهم كلام الله مخلوقا

وهؤلاء أشد بدعة في إخراجهم ما هو من كلام الله عن أن يكون من كلام الله، وصاروا في هذا موافقين الوحيد [هو الوليد بن المغيرة، المقصود في

قوله تعالى:{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً} في بعض قوله لا في كله، وهو قولهم : إن نصف القرآن ليس قول الله، بل قول البشر

وربما استدل بعضهم بأنه مضاف إلى الرسول فيكون هو أحدث حروفه،ولم يتأمل هذا القائل فيرى أنه أضافه تارة إلى رسول هو جبريل، وتارة إلى رسول هو محمد، بقوله في الآية الأولى:{ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ } [التكوير:١٩-٢١]،فهذا جبريل، وقال في الآية الأخرى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ} [الحاقة:٤٠- ٤٢] وهذا محمد، فلو كانت إضافته إليه لأنه ابتدأ حروفه وأحدثها لم يصلح أن يضاف إلى كل منهما؛ لامتناع أن يكون كل منهما هو أحدث حروفه؛ ولأنه قال:{ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ } وهذا إخبار عن القرآن الذي هو بالمعنى أحق عندهم وعند أهل السنة أيضاً، فلو كان الرسول ابتدأه لكان القرآن من عنده لا من عند الله، وإنما أضافه الله إلى الرسول لأنه بلغه وأداه وجاء به من عند الله ؛ ولهذا قال :{ لَقَوْلُ رَسُولٍ} ولم يقل : لقول ملك ولا نبي، بل جاء باسم الرسول ليتبين أنه واسطة فيه

وسفير، والكلام كلام لمن اتصف به مبتدئا منشئاً، لا لمن تكلم به مبلغاً مؤدياً، كما يقال مثل ذلك في جميع كلام الناس فكيف بكلام الله ؟! وهذا على القول المشهور في التفسير المطابق لظاهر القرآن : أن الرسول في أحد الموضعين محمد صلى الله عليه وسلم، وفي الآخر جبريل عليه السلام

وأما على قول طائفة جعلته في الموضعين جبريل، فيكون الجواب هو الثاني، والإثبات في الحقيقة حجة لمن يقول: إنما يتكلم بكلام الله ويقول قوله؛ لأنه جعل الرسول يقول قول الله الذي أرسله به، والمعنى يراد من هذا قطعاً، كما أريد منه اللفظ أيضاً

وأيضاً، فإن هؤلاء جعلوا الكلام الذي يتصف الله به معنى واحداً، وهو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وأنه إن عبر عنه بالعربية كان هو القرآن، وإن عبر عنه بالعبرية كان هو التوراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان هو الإنجيل، وهذا مما أجمع جمهور العقلاء على أن فساده معلوم بالضرورة

والمعنى الثاني الذي خالفوا فيه أهل السنة والجماعة قولهم : إن القرآن المنزل إلى الأرض ليس هو كلام الله لا حروفه ولا معانيه، بل هو مخلوق عندهم

ويقولون: هو عبارة عن المعنى القائم بالنفس؛ لأن العبارة لا تشبه المعبر عنه،بخلاف الحكاية والمحكي، وهذا فيه من زيادة البدع ما لم يكن في قول [اللفظ] من أهل الحديث، الذين أنكر عليهم أئمة السنة وقالوا: هم جهمية ؛ إذ جعلوا الحروف من إحداث الرسول، وليست مما تكلم الله به بحال، وقالوا : إنه ليس لله في الأرض كلام، ولم يكن أيضاً في [اللفظية] القدماء، الذين يقولون : لفظنا بالقرآن غير مخلوق، من يقول: إن صوت العبد غير مخلوق،أو أن الصوت القديم يسمع من العبد، أو أن هذا الصوت صوت الله، أو يسمع معه صوت الله، وإنما أحدث هذا أيضاً المتطرفون منهم، كما أحدث المتطرفون من أولئك أن حروف القرآن ليست كلام الله، فإن هاتين البدعتين الشنيعتين لم تكونا بَعْدُ ظهرتا في أولئك المنحرفين، الذين أنكر الإمام أحمد وغيره قولهم من الطائفتين، وأن

القرآن ليس إلا مجرد معنى قائم بالنفس، وذلك المعنى إليه يعود كلام الله من التوراة والإنجيل والقرآن

والأخرى قد رأت حروف القرآن من كلام الله، وأن القرآن كلام الله، حروفه ومعانيه، وأن المعنى الواحد يمتنع أن يكون هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وأنه يمتنع أن يكون مدلول التوراة والإنجيل والقرآن واحداً، وعلموا أنا إذا ترجمنا التوراة بالعربية لم يصر معناها معنى القرآن، وأن هذه الأقوال معلومة الفساد بالضرورة، عارضها بعضها، لأن القرآن حرف وصوت، واعتقد بعضهم أنه ليس القرآن والكلام إلا مجرد الحروف والأصوات، وأولئك يقولون: ليس الكلام إلا مجرد المعنى القائم بالنفس

وكلا هذين السلبين الجحودين الحادثين خلاف ما كان عليه الأئمة، كالإمام أحمد وغيره من الأئمة، وأعيان العلماء من سائر الطوائف

فإن الكلام عندهم اسم للحروف والمعاني جميعاً، كما أن [الإنسان] الناطق المتكلم اسم للجسد والروح جميعاً، ومن قال: إن الإنسان ليس إلا

هذه الجملة المشاهدة فهو بمنزلة من قال: ليس الكلام إلا الأصوات المقطعة، ومن قال: إن الإنسان ليس إلا لطيفة وراء هذا الجسد، فهو بمنزلة من قال: إن الكلام ليس إلا معنى وراء هذه الحروف والأصوات، وكلاهما جحد لبعض حقائق مسميات الأسماء، وإنكار لحدود ما أنزل الله على رسوله

أنواع الكفر

أنواع الكفر

للكفر أشكال تكلم فيها العلماء منها كفر يخرج عن الملة ، ويطلق عليه اسم الكفر الإعتقادى أو الحقيقى أو الأصلى ، وهذا النوع من الكفر يوجب للإنسان الخلود فى النار بالنسبة لأحكام الآخرة ، كأن يذكر المكلف عمداً وعن علم ركناً من أركان الإسلام ، أو الإيمان صراحة ، وهناك نوع آخر من الكفر و هو الكفر الذى لا يخرج عن الملة ويسمى الكفر العملى أو المجازى أو الكفر الأصغر ، وهذا النوع من الكفر يوجب لصاحبه الوعيد دون الخلود فى الجحيم ، على أنه لا ينقل صاحبه من ملة الإسلام إنما يدمغه بالفسوق والعصيان ، كأن يترك المكلف الصلاة المفروضة مع علمه بوجوبها وإليك بعض التوضيح ٠

كفر الملة وكفر النعمة : كفر الملة هو الكفر المخرج عن الدين ، و هو إعتقاد خلاف ما يعتقده المسلمون من وجوب شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج

البيت ،والإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ،وكل ما من شأنه إن خولف أن يدخل المخالف فى دائرة الكفر كجحد وإنكار ما سبق جميعه أو بعضه أما كفر النعمة فهو من باب كفران العشير قال رسول الله ﷺ (انى اطلعت فى النار فوجدت أكثر أهلها النساء) وسبب ذلك (أنهن يكفرن العشير) قيل يا رسول الله يكفرن بالله ورسوله - والسؤال للاستفسار ، وهل يخرج عن الملة قال (لا بل يكفرن العشير إذا أحسن المرء إليهن الدهر ثم رأت منه شيئاً قالت لم أر منك خيراً قط) وهذا جحد لنعمة الزوج وحقه عليها فاستعمل لفظ الكفر لا ليقول أنها خرجت عن الملة ، ولكن ليقول أنها جحدت نعمة الزوج عليها ، قال القاضى أبوبكر بن العربى فى شرح قول البخارى باب كفر دون كفر إن مراد المصنف أن يبين أن الطاعات كما تسمى إيماناً كذلك المعاصى تسمى كفراً ، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج عن الملة وخص كفران العشير من بين أنواع الذنوب لدقيقة بديعة وهى قوله ﷺ (لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها) فقد قرن حق الزوج على زوجته بحق الله فإذا كفرت المرأة حق زوجها وقد بلغ

من حقه عليها هذه الغاية ، كان ذلك دليلاً على تهاونها بحق الله من جهة كون الكفر ضد الإيمان وخلاصة ذلك أن الكفر قد يطلق على المعاصى ،كما يطلق الإيمان على الطاعات ، و هو إشارة إلى كفر النعمة لقوله يكفرن العشير

، أى يجحدن حسن المعاشرة ، وما أنعم به الزوج فى سابق عهده معها ، فى قول البخارى (المعاصى من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك) قال ابن حجر العسقلانى قوله لا يكفر صاحبها إلا بالشرك أى أن كل معصية تؤخذ من ترك واجب أو فعل محرم من أخلاق الجاهلية والشرك أكبر المعاصى ولهذا استثناه ، ومحصل التوضيح أنه لما قدم أن المعاصى يطلق عليها الكفر مجازاً على إرادة كفر النعمة لا كفر الجحد ، أراد أن يبين أنه كفر لا يخرج عن الملة ،و هذا خلافاً للخوارج الذين يكفرون بالذنوب ونص القرآن يرد عليهم و هو قوله تعالى { وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ } فصير ما دون الشرك تحت إمكان المغفرة والمراد بالشرك فى هذه الآية الكفر لأن من جحد نبوة محمد ﷺ مثلاً كان كافراً ولو لم يجعل مع الله إلها آخر والمغفرة منتهية

عنه بلا خلاف ، وقد يرد الشرك ويراد به ما هو أخص من الكفر فى قوله تعالى{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ } ٠

قال ابن بطال غرض البخارى الرد على من يكفر بالذنوب كالخوارج ويقول إن من مات على ذلك مخلد فى النار والآية ترد عليهم لأن المراد بقوله{ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ } من مات على كل ذنب سوى الشرك ، قال الكرمانى فى استدلال البخارى بقوله لأبى ذر (عيرته بأمه) ذظر لأن التعبير ليس كبيرة و هم لا يكفرون بالصغائر قال ابن حجر استدلاله عليه من الآية ظاهر ولذلك اقتصر عليه ابن بطال، وأما قصة أبى ذر فإنما ذكرت ليستدل بها على أن من بقيت فيه خصلة من خصال الجاهلية سوى الشرك لا يخرج من الإيمان بها سواء كانت من الصغائر أم الكبائر - قلت والمراد من ذلك جميعه هو أنه هناك ذنوب يطلق عليها الكفر مجازاً ولكن لم تصل إلى الشرك وهذا هو كفر النعمة وفاعلها ليس بكافر ، أما الذنوب والكبائر التى يقترن بها الشرك فهى كفر الملة ، والذى فاعله مخلد فى الجحيم ٠

كفر الإعتقاد وكفر التقية

الاعتقاد هو ما يعتقده المرء ويؤمن به ، ويجعله عقيدة له وكفر الاعتقاد أى الكفر باعتقاد ما كان مخرجاً عن الملة ،كأن يعتقد المرء أن للكون إلهين أو أن لله شريكاً فى ملكه ، أو أن عيسى هو الله أو أى شئ يخالف ما اتفق عليه العلماء أنه هو الإيمان ، أو شطر منه أو اعتقاد أى شئ يخالف ما علم من الدين بالضرورة ، أو اعتقاد حل بعض المحرمات وحرمة ما أحل الله ، وذلك بعد أن يتبين له خطأ ذلك ، فإن أصر على اعتقاده فهو كافر ،أما كفر التقية فهو أن يتلفظ بألفاظ مدلولها كفر أو هى كفر فى ذاتها أو أى فعل ’أكره عليه ، ولم يملك دفع الضرر عن نفسه إلا أن يتعدى ما أكره عليه إضراره بنفسه إلى الإضرار بالغير، كالقتل والإضرار بالوطن كإفشاء معلومات للعدو مكرهاً ،فهو لا يجوز حرصاً على حياة الغير وسلامة الوطن، وإن وصل الإكراه إلى وقوع الضرر به حتى وإن أدى إلى وفاته و هو فى حالة تلفظه بالكفر معتقداً خلافه فلا شئ عليه لقوله تعالى { إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ } ،ولقد أكره عمار بن ياسر وتلفظ بالكفر وشكى ذلك إلى النبى ﷺ فطمأنه أن ليس عليه شئ وقال له

إن عادوا فعد واختلاف العلماء كان فى جواز التقية هل تجوز التقية بعد قوة المسلمين واستحكام الدين أم لا ؟ يرى بعض العلماء أنه بعد أن استقر الإسلام فلا تقية وأنها إنما كانت فى حداثة الإسلام قبل استحكام الدين وأنها أبيحت لظروف ضعف المسلمين أبان بداية الدعوة وقال البعض التقية إلى يوم القيامة ،أما اليوم فقد أعز الله الإسلام وأهله فليس لأهل الإسلام أن يتقوا من عدوهم ، وهذا يجعل التلفظ فى أزمنتنا بالكفر إتقاءاً موضع شك، قال يحي البكائى قلت لسعيد بن جبير فى أيام الحجاج أن الحسن يقول بالتقية باللسان والقلب مطمئن بالإيمان ، فقال سعيد ليس فى الأمان تقية إنما التقية فى الحرب وقيل إنما تجوز لصون النفس من الضرر لأن دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الإمكان ومن أحكام التقية أن تجوز إذا كان فى قوم كفار، ويخاف منهم على نفسه وماله فيداريهم بلسانه ، وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولو أنه أفصح بالإيمان والخوف حيث تجوز له التقية كان أفضل ،وأنها تجوز فيما يتعلق بإظهار الموالاة والمعاداة ،أو فيما يتعلق بإظهار الدين ، فأما ما يرجع ضرره إلى الغير كالقتل والزنا أو شهادة الزور وقذف المحصنات ، واطلاع الكفار على

عورات المسلمين فهذا لا يجوز مطلقاً ، و قد رأى الشافعى أنه إذا شاكلت الحالة بين المسلمين الحالة بين المسلمين والمشركين ، حلت التقية حرصاً على النفس ولقد قسم العلماء كفر الاعتقاد إلى خمسة أنواع هى :-

- كفر تكذيب و هو اعتقاد كذب الرسل و هذا القسم قليل فى الكفار لان الحق سبحانه فضح أهل الكفر أنهم يعلمون الحق فقال تعالى{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } وقال تعالى{ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ } ٠

- كفر اباء واستكبار ومنه كفر إبليس قال تعالى } فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }و قال تعالى {فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ }

- كفر إعراض كمن يعرض عن الدعوة كلية ولا يسمعون الرسول لا يصدقونه ولا يكذبونه ولا ولاء ولا عداء ٠

- كفر الشك فهو كفر من لم يصدق ولم يكذب بل يشك ٠

- كفر النفاق وهو أن يظهر المرء بلسانه الإيمان وينطوى قلبه على التكذيب فهو كفر ، أما من أكره على الكفر فتلفظ به اتقاء الضرر المهدد بإيقاعه عليه إن لم يكفر فلا شئ عليه ، إلا أن يكون مائلاً له مستحباً إياه فيكون مع الأول فكفر الاعتقاد كفر ، أما كفر التقية مع اطمئنان القلب بالإيمان فلا شئ .

أى أنواع الكفر يخلد فى الجحيم

نعلم أن هناك أنواع للكفر سبق التعرض لها ، هى كفر الاعتقاد وكفر التقية وكفر النعمة ، والمهم هو أن نعرف أى أنواع الكفر هذه هو الذى يخلد فى الجحيم ، فكفر التقية هو التلفظ بألفاظ هى كفر إتقاءاً لما قد يقع عليه من الضرر بشروط سبق توضيحها، أما كفر النعمة فهو ذنب أو معصية لم تصل إلى حد الكفر لان النبى ﷺ وضح ذلك فى قوله عندما سئل يكفرن بالله قال بل يكفرن العشير أى يجحدن نعمة الزوج عليهن ، فجعل الحق تبارك وتعالى كفر المتقى ليس بكفر ، لأنه مكره وجعل النبى

ﷺ كفر النعمة ليس بكفر إلا إذا صاحبه شرك ، فبقى كفر الاعتقاد هو الكفر المخلد فى الجحيم أعاذنا الله وإياكم من سوء المنقلب ٠

أنواع الشرك

واستكمالاً لأنواع ما يخلد فى الجحيم على الجملة نعرض لأنواع الشرك وهى نوعان رئيسيان هما الشرك الأكبر والشرك الأصغر والمعلوم أنه الرياء وهو ماحدده العلماء ولقد ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب أربعة أنواع للشرك الأكبر هى:-

١- شرك الدعاء قال تعالى {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } ٠

٢- شرك النية والإرادة والقصد قال تعالى { مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ* أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} ٠

٣- شرك الطاعة قال تعالى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }وفى الحديث عن عدى بن حاتم حين سمع رسول الله ﷺ يقرأ الآية قال فقلت لم يعبدوهم فقال (بلى انهم احلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتيعوهم فتلك عبادتهم إياهم) .

٤-شرك المحبة قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ } .

الفرق بين النفاق والردة

أما النفاق فمنه ما هو مخرج من الملة ، و هذا هو النفاق الأكبر يقول ابن تيمية منه ماهو أكبر يكون صاحبه فى الدرك الأسفل من النار ، كنفاق عبد الله بن أبى بن سلول ،وغيره بأن يظهر تكذيب القرآن أو جحود بعض ما جاء به أو بغضه أو عدم وجوب إتباعه ومنه ما هو نفاق أصغر ، وهو الرياء أما الردة فهى الكفر بعد الإيمان ، فمن قال الكفر أو فعله أو أقره مختاراً كفر ، وإن كان مع ذلك يبغض بقلبه ، وبهذا قال علماء السنة

والسلف ، وذكروا ذلك فى كتبهم ، فقالوا إن المرتد هو الذى يكفر بعد إسلامه إما قولاً وإما فعلاً وإما اعتقاداً ، وقرروا أن من قال الكفر وان لم يعتقده نحكم بكفره إن لم يكن مكرهاً، وكذلك إذا فعل الكفر وإن لم يعتقده ولا نطق به ، وكذلك لو انشرح صدره بالكفر ، وان لم ينطق به ولم يعمل به ٠

واجب الحاكم نحو أهل الكفر

يجب أن نفرق هنا بين حالتين هما أهل الكفر إبتداءًا أي الذين لم يسبق لهم إيمان ، وأهل الرده الذين سبق لهم إيمان أو إسلام ٠

ففى الحالة الأولى :- أهل الكفر الذين لم يسبق لهم إيمان يجب على الحاكم أن يبلغ الدعوة الإسلامية إليهم متضامناً مع بقية المسلمين إلى كل أطراف الدنيا لأن الإسلام دين عالمى ويجب أن لا يكون المسلمون وحكامهم أقل من غيرهم نشاطاً فى هذا الميدان ، فالكفار ينفقون المليارات على محاولة نشر دينهم الفاسد و هم على ماهم فيه من الباطل ، أفلا يكون المسلمون مثلهم فيغاروا على الحق ،كما يغار أهل الباطل على باطلهم ، وأن يكون

منهج الحاكم والمسلمون فى الدعوة قول الحق سبحانه {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ } ويجب على الحاكم الالتزام بما يأمر به لكى يكون قدوة فما كان النبى ﷺ ليأمر بشئ ولا يلتزم به ، ولقد أسلم كثير من أهل الشرق لما رأوا من حسن خلق التجار المسلمين، الذين كانوا يجوبون بلادهم، كما أنه لايجوز أن يأمر المرء بشئ ولا يأتيه { {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } ، ولقد بلغ صدق النبى ﷺ مع نفسه أن كان أعداؤه يعلمون أنه إن قال شيئاً فإنه فاعله مهما بلغت صعوبة الفعل واستحالة حدوثه حين قاله ، وقد بلغت ثقة أعداؤه به أن كانوا يستأمنونه على الغالى والنفيس عندهم سراً ، ويقاتلونه جهراً و هذا المنهج هو الذى اتبعه الراشدون من بعده ، فلقد وثق بهم أعداؤهم ثقة لم تحدث على مدى التاريخ البشرى كله على طوله ، فكانوا يجلونهم ويعلون قدرهم ، رغم العداء حتى أن رستم قائد الفرس يشيد بعمر فيقول { عمر يكلم الكلاب فيعلمها العقل } ويقول الهرمزان { حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر }، وإذا دعت الحاجة الحاكم أن يدفع عن المسلمين المكروه وجب عليه

ذلك فى أى مكان ، ويحمى حماهم ، وإن كانوا ليس من رعيته لأن أخوة الإسلام مرجعها ليس المكان، وإنما مرجعها العقيدة فالمسلم أخو المسلم ، وإن كان هذا فى أقصى الشرق والآخر فى أقصى الغرب {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} كما يجب الربط بين الدين والأحداث المعاصرة لئلا يشعر المسلمون بالاغتراب ، وأذهم بعيدون عما يدور حولهم ، أو أن الدين مكانه المسجد فقط لا علاقة له بحياة الناس ، لأن هذا شك فى كفاية المنهج وها بداية دبيب الكفر فى النفس ، كما يجب عليه أن يزيل العثرات من أمام أجهزة الدعوة ، حتى لايعوقها عن عملها شئ ، ويجب الضرب على كل يد تشوه الإسلام فى الداخل والخارج ، وليس الضرب على أيدى المسلمين كما يحدث حالياً ،وإتهامهم بالإرهاب من قبل الأجهزة الإسلامية ، كما يجب إخضاع الخطاب الدينى لخدمة المسلمين والإسلام لا إخضاعه لخدمة السلطة الزمنية ،حيث أن السلطة تطوع الخطاب الدينى لخدمة اغراضها التى تتغير تبعاً للمتغيرات والظروف ،فأمس اشتراكية محمد ، وأبوبكر وعمر وعثمان ، واليوم رأسمالية فالإشتراكيون حمقى وكفار .

أما الحالة الثانية :- وهى كون الرعية كانت مسلمة ثم عرض لها ما جعلها ترتد ، فقد ضرب لنا أبوبكر الصديق أروع مثل ، وأوضح لنا ما يجب أن يكون عليه الحاكم تجاه المرتدين من الرعية ، فلم يترك المجال لمجتهد أو متأول بل حسم القضية فقال { والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه } ولم يرعوى من كثرة المرتدين وكان منطقه واعتقاده { فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي } ولم يهمه أعدادهم ومعارضة بعض الصحابة له بل قاتل بعده آلاف محدودة مئات الآلاف من المرتدين ومانعى الزكاة الذين يظنون أنها جزية أو ضريبة يدفعونها لمحمد ، فلا يحق لغيره أن يأخذها فانتصر لله لأن دافعه إقرار قول لا إله إلا الله وتثبيت دعائم الدعوة الناشئة فنصره الله { إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ } أما المرتدين فكان حافزهم الدرهم والدينار ، وهل لعبدة الدرهم والدينار قوة أمام قوة الواحد القهار ، ورغم معارضة الصحابة ، ومعارضة أكبرهم بعد أبوبكر ، عمر بن الخطاب الذى قال لأبى بكر قال رسول الله ﷺ { أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فان قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها} ولأن أبوبكر هو أبوبكر الذى

يعدل إيمانه إيمان أمة محمد كلها ، ولأنه استوعب الدرس من صديقه وحبيبه وصهره ، وعلم أن قوله بحقها يعنى أداء موجبات كلمة التوحيد فقول لا إله إلا الله توجب التزامات من لم يؤدها كمن لم يقلها لذلك ، وعندما فهم عمر قصد صاحبه انشرح صدره لقتال المرتدين ، وكان ما نعلمه جميعاً ، وهذا هو ما يجب على الحاكم تجاه أهل الردة ، قتالهم مجتمعين ، وقتلهم فرادى بعد استيفاء شروطها التى اشترطها الفقهاء من وجوب الإستتابة وخلافة ومن قصر فى أداء ذلك آثم عاص ٠

واجب الرعية نحو أهل الكفر

يجب هنا التفرقة بين حالتين ففى الحالة الأولى وهى واجب الرعية نحو الحاكم أو الأمير أو السلطان إن كان كافراً ، والحالة الثانية وهى واجب الرعية نحو رعايا الكفار أى رعية مسلمة ورعية كافرة وفيها حالتين الأولى حالة المجاور للرعية ، أى يعيش الكافر مع المسلمين فى دولتهم وهنا يلزم الرعية المسلمة أن ترعى جواره ، وترعى الله فيه وتنصحه وتبدى حسن الخلق تجاهه عل ذلك يدفعه إلى الإسلام، ويجب عدم إيذاؤه

لقول الرسول ﷺ (من آذى ذميًا كنت خصمه يوم القيامه) ، و عدم قتله إلا بحق لقول النبى ﷺ {من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين سنة} ، ولكن لا يجب أن يكون هناك ود قائم معهم ، لورود النهى عن ذلك قال تعالى {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ } كما يجب عدم إطلاعهم على عورات المسلمين ، وخباياهم لخشية أن يكون عين عليهم و هم لا يشعرون ، ويجب على المسلم أن يفى بالو عد لهم ، ولا تكون المعاملة معهم كمعاملة اليهود لغيرهم حين يقولوا { قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ }وألا يضاروا لمخالفتهم فى الدين ، ولا يكرهوا على أن يسلموا لقوله تعالى {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ }وليس هناك ما يمنع من التعامل الظاهرى معهم فى البيع والشراء والإجارة والإكتراء وخلافه ، مالم يوجد بديل مسلم ، ولكن لا يشركوا فى الأمانات لأن منهم من يستحل خيانة المسلمين ، وأكل أموالهم .

والحالة الثانية : هى الواجب نحو رعايا الكفار فى الدول الأخرى ، فيجب عدم اطلاعهم على عورات المسلمين ، وإن ’أكره على ذلك لم يحل له أن يستجيب حتى ولو قتل فى سبيل ذلك ، كما يجب إذا ما دعا داعى الحرب أن يستجيبوا للنداء وإذا دعا داعى السلم استجابت الرعية إذا جنح ولى الأمر المسلم على أن لا يكون داعى السلم إستسلام مع خضوع وذلة ومسكنه دعاهم إليها الضعف والهوان كما هى حالة العرب والمسلمين الآن٠ كل ما سبق يكون فى حالة إذا ما كان بين المسلمين والكفار عهد٠

واجب الرعية المسلمة نحو الحاكم اذا كفر

واجب الرعية ومهمة الحاكم أو الإمام أو الخليفة حددها الإسلام تحديداً داخل إطار لا إله إلا الله فإذا خرج الحاكم عن هذا الإطار وجب الخروج عليه ، وخلعه ومقاتلته إذا لزم الأمر ،ولقد جاءت نصوص عدة تدعو الحاكم إلى إتباع ما أمر به الله ومنها قوله تعالى {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } وقال تعالى { {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى} وقال رسول الله ﷺ { ما من عبد يسترعيه الله رعيه فلم

يحطها بنصحه لم يجد ريح الجنة}وفى رواية { ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة }والإمام أو الخليفة أو الرئيس بحسب التعبيرات الحديثة هو فرد من عامة الشعب ، جعله الله أثقل حملاً ومسئولية من غيره ولاه الحق ر عايتهم فصار نائباً عنهم ووكيلاً فى تحقيق مصلحتهم ، و هو ليس معصوماً عن الخطأ، ولا مفو ضاً عن الله أن يفعل ما يشاء فنظام الحكم فى الإ سلام نظاماً شورياً ، ليس للحاكم أن يستبد بشئ دون الناس ، فهو فى الأصل يعمل لهم و هل يعمل لهم ماليس لهم فيه رأى ؟ قال تعالى { وأمرهم شورى بينهم } ولن يصل أحد مهما حاول واجتهد أن يصل إلى ما وصل إليه تلامذته ، ورغم ذلك فالحق سبحانه وضع له المنهج الذى ألزمه بإتباعه ، وحذره أن يحيد عنه ، ولقد حدد بعض العلماء مهام الإمام وواجباته ، و منهم الماوردى فقد ورد فى الأحكام السلطانية أنها عشرة تتلخص فى :-

- حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه السلف.

- تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين لتحقيق العدل ومنع الظلم.

- حماية الوطن من الفتن وإقرار الأمن .

- إقامة الحدود لصيانة محارم الله .

- تحصين الثغور لصيانتها من العدو.

- جباية الفئ والصدقات أى تدبير موارد الدولة .

- الجهاد لمن يعادى الإسلام ويقف فى طريق الدعوة .

- تقدير العطايا .

- اختيار الأكفاء من العاملين .

- مراقبة تنفيذ الأوامر ومتابعة سير العمل .

وقال فى حكمة هذا الواجب الأخير ، ولا يعول على التفويض أى إسناد العمل إلى من يقوم به ثم يتشاغل بشئ خلاف مراقبته فقد يخون الأمين ، ويغش الصالح إذا ما فقد الرقيب ، والطبيعى أنه مع التطور و هذه الطفرة

التى نقلت المجتمعات من مجتمعات بدوية زراعية بسيطة الى قمة التكنولوجيا ، ومانراه الآن يتطلب واجبات أخرى تلقى على عاتق ولى الأمر ، فإذا ما إلتزم الحاكم ذلك فلاشئ عليه ، أما إذا لم يلتزم ذلك بل كان فاجراً وآثر نفسه وذويه بالمال ، فلا يجب على الرعية عزله بل وجب نصحه ، فالواجب الصبر وعدم الخروج عليه إلا بشروط ، قال الحق تبارك وتعالى للنبى ﷺ { {وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرا }، ولقد كان الراشدون يسعدون لوجود من يقوم اعوجاجهم ، قال أبوبكر { إن رأيتمونى على حق فأعينونى وأن رأيتمونى على باطل فقومونى } وقال رجل لعمر { والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا } ترى ماكان رد عمر ؟ لم يقل خذوه إلى المعتقل أو أقتلوه بل قال {الحمد لله الذى جعل فيكم من يقوم إعوجاج عمر بسيفه } ، ولقد رأى أبوذر فى خلافة عثمان ، وبالتحديد فى الشام عند معاوية ما لا يعجبه فاعترض وثار ، وكان له مع معاوية شأن فنفاه عثمان إلى الربذة واتبع أبوذر نصيحة النبى ﷺ له حين قال له { الا أدلك على

خير من ذلك قال بلى قال اصبر حتى تلقانى على الحوض }وهذا مفاده أن الصبر على جور الحاكم أفضل من الخروج عليه لقوله {٠٠خير من ذلك٠٠} ولكن إن وجدت الرعية فى الراعى خروج عن الشرع ، وكفر بواح وجب الخروج عليه وعدم طاعته ومناجزته ، حتى يخلعوه أو يقتلوه ، قال ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى نقل ابن القيم عن الداودى قوله الذى عليه العلماء فى أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنه ولا ظلم وجب ، وإلا فالواجب الصبر ، وروى عن بعض العلماء أنه لا يجوز عقد الولاية لفاسق إبتداءاً ، فإن أحدث جوراً بعد أن كان عادلاً فيجب الخروج عليه ٠

جاء فى مفيد العلوم :- إعلم أن مذهب أهل السنة والجماعة لا يجوز الخروج على السلطان الظالم بكل حال بل يجب على الرعية طاعته ، وان سامهم خسفاً وكلفهم عنتاً { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } اللهم إلا أن يتظاهر بأمر يخالف دين الله سبحانه وتعالى ، أو حكم يخالف حكم الله تعالى ، فلا يجب طاعته ، و ماسبق لابد وأن يثير تساؤل هو:-

هل الدين يحض على السلبية فى مواجهة المذكر اذا كان صادراً من الحاكم؟

الإجابة :- قطعاً بالنفى فإذا ما كان المنكر سيثير تغييره فتنه وجب الصبر عليه حتى دفع الضرر الأكبر وهو الفتنة بالضرر الأصغر ، وهو الجور ولكن ليس معنى ذلك السكوت ، بل وجب المحاولة لتغيير المذكر بالنصح والتوجيه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومحاولة منع الظلم بالوسيلة التى لا تؤدى إلى الفتنة أما إذا كفر الحاكم ؟ هذا أمر يختلف تماماً عن حالة الحاكم الظالم إذا لم يخرج عن الإسلام ٠

قال ابن تيمية إن أخطر أنواع الردة ردة الحاكم الذى يفترض فيه أن يحرس عقيدة الأمة ويقاوم الردة ويطارد المرتدين ، ولا يبقى لهم من باقية فى رحاب المجتمع ، فإذا هو نفسه يقود الردة سراً وجهراً وينشر الفسوق سافراً وتصنعاً ويحمى المرتدين ، ويفتح لهم النوافذ والأبواب ويمنحهم الأوسمة والألقاب كما قال الشاعر:

وراعى الشاة يحمى الذئاب عنها فكيف والرعاة لها ذئاب

نـرى هـذا الصـنف مـن الحكـام مواليـاً لأعـداء الله معاديـاً لأوليـاء الله مستهيناً بالعقيدة مستخفاً بالشريعة غير موقر للأوامر والنواهى الألهية والنبوية ، مهيناً لكل مقدسات الأمة ورموزها من الصحابة الأبرار والآل الأطهار ، والخلفاء الأخيار ،والأئمة الأعلام وأبطال الإسلام ، ويعتبرون التمسك بفرائض الإسلام جريمة وتطرفاً مثل الصلاة فى المساجد للرجال ، والحجاب للنساء والغريب أن بعض هذه الفئات مع هذه الردة الظاهرة تحـرص علـى أن يبقـى لهـا عنـوان الإسـلام لتسـتغله فـى هـدم الإسـلام ، ولتعاملهم الأمة على أنهم مسلمون وهنا يتعقد الموقف فمن الذى يقيم الحد على هؤلاء ، بل من الذى يفتى بكفرهم أولاً وهو كفر بواح ومن الذى يحكم بردتهم وأجهزة الإفتاء والقضاء الرسمى فى أيديهم ٠

اتفق العلماء على وجوب عزل الحاكم إذا كفر بعد إيمانه ، أما إن كان كافراً إبتداءاً أى لم يسبق له إيمان فلا يجوز توليته إبتداءاً ، لأنه لاولاية لكـافر علـى مسـلم أو ولايـة علـى الإسـلام ، أمـا الانحـراف بالمعاصـى فللعلماء فيه خلاف، أجاز بعضهم الخروج على الحاكم وعزله ، ورأى آخرون عدم ذلك ، ولقد استدل العلماء على الخروج على الحاكم الكافر

بحديث عبادة بن الصامت ، الذى يأمر بالسمع والطاعة {إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان} ، ولابد أن يكون الكفر صريح ،لاغموض فيه ولا شبهة و يجب أن يكون كفره متفق عليه أما ما فيه خلاف فلا .

قال النووى أجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسوق قال العلماء بعدم عزله وتحريم الخروج عليه لما يترتب على ذلك من القتل وإراقة الدماء .

قلت فان أمكن عزله دون مفسدة أو إراقة دماء فلا مانع ، إذا كان هذا هو السبب ، ويرى العلماء دفع المفسدة الأكثر ضرراً بالصبر على المفسدة الأقل ضرراً ، و هذا يجيز أيضاً عزل الحاكم الفاسق الذى يبدو فسقه إذا كان عزله لا يثير فتنة و قال القاضى عياض أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر ،وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل ، وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها ، والمراد أنه لوخرج من الدين ، أو غير الشرع أو ابتدع خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه وتنصيب إمام عادل إن أمكنهم ذلك ، فان لم

يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر، ويرى ابن حنبل عدم الخروج مطلقاً ، ولو ظهر فيه كفر لأنه دعا المعتصم بأمير المؤمنين رغم أنه قال بخلق القرآن ، وضربه عليه ، واجتمع إليه الفقهاء فى بغداد ، وشاوروه فى خلع الواثق فقال عليكم بالنكرة بقلوبكم ، ولا تخلعوا يداً من طاعة، ولاتشقوا عصا المسلمين وخلاصة كلام العلماء فى هذا الأمر :-

- إذا ظهر من الحاكم كفر بواح ظاهر لا شك فيه وجب عزله ،وقتاله وقتله إن أمكن ، وإن لم يستطع جمهور المسلمين عزله فعلى من استطاع عزله أن يفعل ٠

- اذا ظهر منه فسوق ومعاصى وجب الخروج عليه ، إذا لم تكن هناك فتنة من جراء ذلك ، فان علم بقيناً أنه ستكون فتنة وإراقة دماء وجب الصبر عيه ونصحه٠

- اذا كان الحاكم هو عين الفساد ، والإفساد وهو حرب على الشرع ، ويضطهد المسلمين وينصر غيرهم عليهم وجب الخروج عليه ، وعزله إن أمكن ، ولو لم يمكن إلا بالغيلة جاز ذلك ٠

المصادر والمراجع

معنى تكفير في المعجم موقع المعاني

ما هو تعريف التكفير وما هي ضوابطه؟ موقع الشيخ محمد بن عبد الغفار الشريف

أضواء البيان - سورة المائدة - قوله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون- الجزء رقم١